المؤتمر الإسلامي



الصلاة ومقاصدها

للحكيم أبي عبد الله الترمذي
المتوفى ٢٨٥ هجرية

تقديم
الدكتور عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين

تحقيق
حسني نصر زيدان
معيد بكلية أصول الدين

١٩٦٥

مطابع دار الكتاب العربي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأقم الصلاةَ طرَفَيِ النهارِ وزُلَفاً من الليلِ

إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السّيّئاتِ . ذَلِكَ ذِكْرَىٰ

للذاكرين »

« صدق الله العظيم »

فهرس الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين »

مقدمة

يقول الله تعالى : « وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ » .

وما كانت عبادة الإنس والجن من أجل نفع يصل إلى الله سبحانه من وراء ذلك ، فهو سبحانه غنى عن العالمين ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، وإنما خلقهم من أجل عبادته ليكملهم بهذه العبادة ، وليصل بهم عن طريقها ليكونوا أهلا للقائه سبحانه ، وليتجلى عليهم — إذا تزكوا — بأنواره وإشراقاته .

وقد نوّع لهم سبحانه العبادة ، فلم يجعلها على وتيرة واحدة حتى لا يملوا ، وحتى يكون فى تنوعها تزكية لجوانب متعددة وزوايا مختلفة من الطبيعة البشرية ، وحتى تتناسب على تفاوت فيما بينها — مع كل الفطر والاستعدادات .

وفهم بعض الناس مراد الله سبحانه ، وفهموا توجيهه للبشرية نحو الكمال الذى يجب أن يصل إليه كل من يرجو لقاء الله سبحانه ، وعلموا أن السعادة كل السعادة إنما هى فى الإنطواء تحت اللواء الإلهى ، والدخول فى الساحات الربانية ، فأخذوا « يدعون ربهم بالغداة والعشىِّ يريدون وجهه » وأخذت جنوبهم تتجافى عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فماذا بقى للمؤمن بعد أن باع نفسه وماله لله سبحانه ؟ إنه ملك لله ، فإذا ما حقق واجبات

هذه الملكية ، ولم يفعل ما يفعله العبد الآبق : فقد أصبح فى رعاية الله يتكفل به سبحانه ويرعاه فى كل أموره — ما صغر منها وما كبر : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ؛ ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

فهم قوم عن الله كل ذلك ، فطبعوا الحياة بطابع العبادة ، وجعلوا من أعمالهم عبادة ، ومن حركاتهم عبادة ، ومن سكناتهم عبادة ، بل ومن أنفاسهم عبادة ، وجعلوا من المصنع محراباً ، ومن المعمل معبداً ، فكانت حياتهم عبادة ، وحاولوا جاهدين : أن يقاربوا المثل الأعلى الذى أمر الله سبحانه رسوله صلوات الله وسلامه عليه — أن يكونه :

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

هؤلاء الذين استجابوا لله ولرسوله — فلم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإن كانوا من كبار التجار ، ومن كبار البائعين أو المشترين ، ولم يلههم عملهم الجاد فى المصنع عن ذكر الله ، ولم يغفلوا وهم فى المعامل أو فى الوظائف عن رؤية الله — هؤلاء أخذوا فى التاريخ لقباً معيناً وتسموا بتسمية خاصة هى « الصوفية » .
ومن أنبههم الحكيم الترمذى[1] .

---

(١) حياته : هو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن — أو الحسين — ابن بشر الملقب بالحكيم الترمذى . ولد فى مدينة « ترمذ » حيث قضى بها معظم حياته ولفظ أنفاسه الأخيرة بها وقد اختلفت آراء المؤرخين فى تاريخ ولادته وتحديدها

. . . .

ولكنهم متفقون على أنه ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى — وقد عاش ما يقرب من ٩٠ عاماً وتوفى حوالى سنة ٢٨٥ هـ أو سنة ٣٢٠ . ومكان وفاته لا يزال معروفاً حتى الآن فى خرائب ترمذ القديمة . يقول « بارتولد » : « ونجد بين الأبنية فى أطلال المدينة القديمة لترمذ ضريح الولى أبى عبد الله محمد بن على الترمذى — وهو من المرمر الأبيض » .

وقد انفرد الترمذى من بين شيوخ الصوفية بهذا اللقب « الحكيم » لجملة أسباب نجملها فيما يلى :

أولا : لأنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس الطب .
ثانيا : لأنه كان حريصاً على أن يجمع فى حياته وفى تآليفه بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية — وبين المنهج العقلى الذى جد فى عصره .
ثالثا : لأنه كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الأغريقية فكان بالتالى الممهد لمذهب العرفان فى التصوف الإسلامى .

رابعا : لأنه قد خطا بالتعاليم الصوفية خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد فهى لم تعد عنده مجرد أحوال نفسية ينتقل إليها الصوفى فى جلوته ، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته — بل هى حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص .
وحكمة الترمذى فى تصوفه تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية ومناهج السلوك الروحى . ونجد هذا واضحا فى مؤلفاته العديدة ورسائله المتعددة وبصورة خاصة فى كتاب « علم الأولياء » وكتاب « الحكمة » وكتاب « إثبات علل الشريعة » وكتاب « ختم الأولياء » .
وقد قابل الترمذى فى حياته كثيراً من الصعاب والمحن فقد شنع عليه

معاصروه واتهموه بالكفر والبدعة بسبب هذه الآراء التى ضمنها كتبه وخاصة رأيه فى أن للأولياء خاتما كما أن للأنبياء خاتما — وأنه يفضل الولاية على النبوة محتجاً بقوله عليه الصلاة السلام فى حق الأولياء « . . . يغبطهم النبيون والشهداء » .

وقد نفى الترمذى من ترمذ إلى بلخ ورحل إلى نيسابور وتحدث بها — ورحل إلى مكة — كل هذا ذكره الحكيم الترمذى فى رسالة بخط يده — مازالت موجودة تعرف باسم « بدو شأن الحكيم الترمذى » وهى مخطوطة بمكتبة صائب بتركيا . تحت رقم ١٥٧١

كتبه ومنهجه :

ولقد ترك الحكيم الترمذى ثروة هائلة من التراث العلمى النادر إن دلت على شىء فإنما تدل على قيمة هذا العبقرى الصوفى الذى أوتى من المعارف الربانية ماجعله يصوغها فى أفكار قيمة كان لها أثرها الواضح فى التصوف الإسلامى خاصة وفى الفكر الإسلامى على وجه العموم .

لقد ذكر له المؤرخون من المؤلفات مايربو على السبعين — هذا ما أمكن العثور عليه والتعرف عليه — وكلها مازالت فى بطون المكتبات مابين مخطوطة أو مصورة . اللهم إلا بعض كتب تعد على الأصابع استطاعت أن ترى النور ويتداولها القراء بفضل مجهود بعض العلماء الذين قاموا بطبعها وتحقيقها ، نذكر من ذلك :

١ — كتاب « نوادر الأصول » طبعة استامبول — ٢ — وكتاب الرياضة ، وأدب النفس الذى حققهما الدكتور على حسن عبد القادر عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر والدكتور آربرى بلندن .

٣ — وكذلك كتاب « الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب » حققه الدكتور : « نقولا هير » الأستاذ بجامعة هارفارد بأمريكا » — ٤ — وكذلك قدم الدكتور عثمان يحيى كتاب « ختم الأولياء » ورسالة فى بدو شأن الحكيم الترمذى « فى مجموعة أعداد من مجلة المشرق اللبنانية » السنة الرابعة والخمسون من عام سنة ١٩٦٠ م ص ٣٨٧ وها نحن بصدد إخراج هذه السلسلة النادرة من الثقافة الصوفية الرفيعة حتى يطلع عليها المثقفون فى الشرق والغرب ويعرفوا منها مدى أصالة الفكر الإسلامى الخالص .

ومن أهم الكتب المخطوطة للحكيم الترمذى : —

١ — كتاب الحج وأسراره — ٢ — كتاب الفروق ومنع الترادف — ٣ — عرس الموحدين — ٤ — الأعضاء والنفس — ٥ — منازل العباد من العبادة — ٦ — العقل والهوى — ٧ — المنهيات — ٨ — الأمثال من الكتاب والسنة — ٩ — غور الأمور — ١٠ — المسائل المكنونة — ١١ — علل العبودية أو علل الشريعة — ١٢ — آداب المريدين — ١٣ — الاحتياطات — ١٤ — الأكياس والمغترون — ١٥ — تحصيل نظائر القرآن — ١٦ — الرد على الرافضة — ١٧ — الرد على المعطلة — ١٨ — حقيقة الآدمية ١٩ — الهداية إلى معرفة آداب الولاية — ٢٠ — الكلام على معنى لا إله إلا الله .

وكما ذكرنا أن مؤلفاته أربت على السبعين .

وأما عن كتاب « شرح الصلاة ومقاصدها » فإنه يوجد ضمن مجموعة من الكتب الأخرى للترمذى فى مخطوطة مصورة عن مكتبة باريس الأهلية . وتوجد تحت رقم ٢١٨١٧ تصوف بدار الكتب المصرية — وتوجد له كذلك نسخة =

لقد تثقف فى اللغة ، والدين ، والحكمة ، كأحسن ما يكون التثقيف ، والتزم العبودية لله سبحانه وتعالى أخلص ما تكون العبودية ، ولما توفر له العاملان الأساسيان لكل مرب ومصلح : الثقافة ، وتزكية النفس — أخذ يجاهد فى سبيل الله داعياً العبيد الآبقين إلى الدخول من جديد فى ساحة الرضوان ليتكفل الله بهم ، وليرعاهم ، وليسعدوا فى دنياهم وفى آخرتهم .

= أخرى عن مكتبة أسعد بتركيا — وكذلك توجد نسخة منسوخة بخط اليد وهى حديثة ولكنها مملوءة بالأخطاء وهى تحت رقم ٢١٨٩٥ تصوف بدار الكتب المصرية .

وقد اعتمدنا فى التحقيق على النسخة المصورة الأولى ٢١٨١٧ فهى رغم رداءة الخط أقرب إلى الصواب من النسخة المنسوخة .

وقد تناولت كتب التراجم والطبقات ذكر الترمذى ومصنفاته ، ونذكر من ذلك :

١ — تذكرة الحفاظ ٢ — ١٩٧ ، ٢ — طبقات الشافعية ٢ — ٢٠ ، ٣ — الحلية ١٠ — ٢٣٥ ـ ٤ ـ طبقات الصوفية ٢١٦ ، ٥ ـ تذكرة الأولياء ٢ ـ ٩١ ، ٩٢ تحقيق نيكلسون لندن وليدن ، ٦ ـ كشف الظنون لحاجى خليفة ، ٧ ـ كتاب الرياضة وأدب النفس تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر ، ومستر آربرى ، ٨ ـ بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب تحقيق الدكتور نقولاهير ـ ٩ ـ مجلة المشرق السنة الرابعة والخمسون سنة ١٩٦٠ م ص ٣٨٧ ١٠ — الرسالة القشيرية ـ ١١ ـ مجلة كلية الآداب المجلد الثالث سنة ١٩٤٦ م .

« المحقق »

وفاضت عنه الحكمة جذابة وضاءة زكية ... فاضت عنه حديثاً ، وفاضت عنه سلوكا ، وفاضت عنه كتابة ، وبحثاً ، وتأليفاً فى مختلف الميادين الدينية .

وكان من خير ما ألفه كتابه عن الصلاة شارحا أغراضها ومراميها .

والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى حينما تؤدى على وجهها الصحيح ، حينما تؤدى على الوجه الذى أراده الله ورسوله ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتقود الإنسان إلى الصلة بالله .

فالصلاة من الصلة ، وهى تربط العبد بربه ، وتقوده إلى رضوانه ، وتمهد له الطريق إلى العناية الربانية،وهى لأهميتها لا تسقط عن الإنسان حتى فى حالة الحرب، وعند التقاء الجيوش ، وفى ساحة القتال .

يقول رسول الله صلوات الله عليه « استقيموا ولن تحصوا ، واعملوا وخير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مسلم » .

ويتبين مدى حرص الرجل المؤمن على الصلاة من القصة التالية :

« يروى الإمام مالك عن هشام بن عروة عن أبيه : أن المسور بن مخرمة أخبره : أنه دخل على عمر بن الخطاب من الليلة التى طعن فيها — فأيقظ عمر لصلاة الصبح — فقال عمر : — نعم — ولا حظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ، فصلى عمر وجرحه يثعب دماً » .

على أنه يجب على كل مسلم أن يتدبر الحديثين الصحيحين الآتيين :

روى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وروى الترمذى فى حديث حسن صحيح عن بريدة رضى الله عنه عن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : « العهد الذى بيننا وبينهم : الصلاة فمن تركها فقد كفر » .

وقد جاء عن شقيق بن عبد الله التابعى المتفق على جلالة قدره ، وعلو شأنه — رحمه الله رحمة واسعة — أنه كان يتحدث إلى الناس محذراً لهم من ترك الصلاة ، أو التهاون فيها ، ويقول : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة » .

ذكر الترمذى ذلك عنه فى كتاب الإيمان — بإسناد صحيح .

* * *

ونحن حينما نقدم مغتبطين هذا الكتاب النفيس إلى القراء إنما نقدم لهم درة نفيسة يحرص على اقتنائها كل مسلم ، ونقدم لهم منهجاً ربانياً يحاول كل من يبتغى السعادة أن يحققه ، يحاول أن يحققه ليسعد فى الدنيا ، وليسعد بلقاء الله فى الدار الآخرة .

ولقد اجتهد — مشكورا — الأخ الأستاذ حسنى نصر زيدان وهو من خيرة علماء الأزهر الشريف — فى أن يخرجه على أكمل صورة مستطاعة عن نسخة خطية مصورة واحدة — فجزاه الله عن العلم والدين خير الجزاء .

ومن توفيق الله أنه بينما نفكر فى دار لنشر هذا الكتاب إذا بالله سبحانه وتعالى يوفق المؤتمر الإسلامى وعلى رأسه الرجل الصالح السيد / عاطف سعد — أن يتقدم مغتبطا بعرض مساعدته فى نشر هذا الكتاب القيم وطبعه على نفقة المؤتمر — فكان ذلك حسنة من حسنات المؤتمر الإسلامى تضاف إلى حسناته السابقة . وإن المؤتمر حينما يقوم مشكوراً بطبع هذا التراث القيم إنما يريد من وراء ذلك فائدة

المجتمع من الناحية الإيمانية التهذيبية وهو بذلك يؤدى رسالته الإسلامية الأخلاقية خير أداء .

شكر الله القائمين على المؤتمر الإسلامى جهادهم القيم فى سبيل إحياء الفكرة الإسلامية الصحيحة والعمل على نشرها .

دكتور
عبد الحليم محمود
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر

القاهرة فى ٢٠ ذو الحجة ١٣٨٤ / ٢٢ أبريل ١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« عونك اللهم وحدك لاشريك لك ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيك وعبدك ورسولك ،وعلى آله وصحبه وسلم ..

الحمد لله ولى الحمد وأهله :

أما بعد : فإنك سألتنى عن شأن الصلاة من بين الأعمال ، وعن صورتها من بين الأفعال ، وعن ثمرتها من بين الطاعات ، وعن مثوبتها غداً من بين المثوبات، وعن موقعها ومحلها عند الله فى الدرجات ، وعن سلطانها فى الشريعة وشهرتها فى السموات .

« شأن الصلاة »

فأما شأن الصلاة من بين الأعمال : فإن الله تبارك اسمه خلق هذا الآدمى فاختاره على البرية ، وعظم شأنه من قبل أن يخلقه ، وهيأ له داره مسكناً وحشاها بالرحمة والرضوان ، وعظم أمله فى لقائه هناك فى داره ، وجعل له جوارح سبعاً يكسب بها الخير والمحبوب من الأعمال وجعل القلب أميراً على الجوارح ، ووضع فى القلب كنوزه من المعرفة والعقل والعلم والذهن والحفظ والفهم والفطنة[1] والكياسة[2]. فهذه كلها كنوز الأمير منها ينفق على جنوده وهى الجوارح السبع ، ووضع الشهوة فى جوفه ومعدتها فى النفس والهواء موكل بها ، وجعل الجوارح السبع بمنزلة سبعة من الغنم ، ووكل العبد برعايتها ، ولكل شاة وادى[3] لا رعى له إلا فى ذلك الوادى — فالراعى يرسل أغنامه فى أوديتهن ويقوم على رابية[4] مشرفة على الأودية كلها يراقب أغنامه . فإن تردى[5] أحد منها فى بئر أو جرى وانكسر سارع إليه فأخرجه من ذلك البئر الكبير فجبر كسره وحمله حتى يعود صحيحاً كما كان .

وإن أصاب واحداً سبع بادر إليه مسرعاً فاستلبه منه وإن وجده قد شق بطنه خاطه ، وإن نالته جراحة داوى جرحه حتى يبرأ ، وإن وقع أحد فى مراعى السموم بادر إليه فى سقيه « الباذر » وهو من السمن واللبن وما يرجو إفاقته حتى يعود إلى العافية .

فخلق الله هذا الآدمى على هذه الصفة ليراقب بقلبه جوارحه السبع مشرفاً بقلبه عليهن — وكأنه قال لقلبه : جاهد أيها الأمير بهذه الكنوز التى أعطيتك هذا الهوى وهذه الشهوة والعدو الذى هو بمرصد منها حتى لا يأسر أحداً من جندك

---

(١) هى الحذق .

(٢) هى الظرف وتوقد الذهن.

(٣) هكذا فى الأصل والصحيح « واد ».

(٤) ما ارتفع من الأرض .

(٥) سقط فى بئر أو نحوه .

وإنه وإن أمر قتل كقول هذا السيد لعبده : إحذر ألا يأخذ السبع شيئاً من أغنامك فأعاقبك . فعلم الله أن هذا العدو يستفز عبيده بهذه الشهوات حتى يحدث[1] منهم الأحداث السيئات وتأخذهم غفلة الغيب فيجد العدو سبيلا إلى ذلك فاقتضاهم الوقوف بين يديه قلباً والوقوف بين يديه جوارحا فى الطاعة . فلما لم تستقر القلوب بين يديه ومالت إلى الشهوات ، ولم تستقر الجوارح بين يديه فى الطاعة ومالت إلى السيئات : هيأ الله لهم فعل الصـلاة وقوفاً بين يديه بالقلب وتسليما للجوارح إليه ليجدد بذلك إيمانه وتسليمه لأنهما قد خلقا بترك الوفاء ، لأن العبد كان طالباً لربه بقلبه — وقلبه متردد — فلما جاءه نور الهداية سكن واطمأن إلى ربه فقيل « آمن » على قالب « أفعل » وفى حال الخوف حيث سكن منه الخوف قيل « أمن » على قالب « فعل » فكلاهما مرجعهما إلى السكون . والعبد حين آمن عقد قلبه بأن الذى عرفه هو ربه وأنه يعبده بجميع ما يأمره — لزمه اسم الإسلام فقيل أسلم من أجل أنه سلم نفسه إليه عبودة . وقيل مؤمن من أجل أنه سكن واطمأن إليه فلزمه هذان الإسمان فى ذلك العقد الواحد ثم اقتضى[2] الوفاء بذلك إلى حضور أجله .

والعبد بين أمرين من ربه أحدهما : حكمه عليه فى الأحوال واقتضاؤه الرضا به — والآخر : فعل يفعله العبد واقتضاؤه تسليم النفس إليه فى ذلك الفعل وهو الأمر والنهى — فكلما ضاع واحد من هذين الأمرين[3] جدده بهذه الصلاة فجعل صورتها على صورة أفعاله خشوعاً وخضوعاً وتسليما إليه نفساً — وجعل ثمرتها إقباله عليه ، وجعل مثوبتها الرفعة والقربة منه ومحلها الدخول على الله فى الحجب والإعراض عليه « بريد العرض » ، « والصوم ثمرته تطهير النفس ، والزكاة ثمرتها تطهير المال ، والحج ثمرته وجوب المغفرة ، والجهاد ثمرته وجوب الجنة ، والصلاة ثمرتها إقبال الله على

(١) هكذا فى الأصل « والصحيح — تحدث » .
(٢) هكذا فى الأصل » ولعل صحتها — ثم اقتضاه الوفاء » .
(٣) وهما الاسلام . والايمان . أو الرضا وتسليم النفس.

عبده — ففى الإقبال جميع ما ذكرنا من تطهير النفس والمال ووجوب المغفرة ووجوب الجنة .

والصلاة دار الله من دخلها دخل فى عرش الله[1] وولائمه وضيافاته ، فمن الوقوف والركوع والسجود ضيافاته ، ومن التلاوة أعراسه ، ومن الثناء والتشهد ولائمه . والأعراس فى الدار والمساكن والولائم فى البساتين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« جعل الله قرة عينى فى الصلاة » ولم يقل بالصلاة ولكن فى الصلاة وقال : « أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها » يعنى به الرَّوْح رَوْح المقام بين يديه . ولم يقل أرحنا منها كما تأوله أهل الغفلة .

ومن صارت الصلاة لجوارحه قيداً ولقلبه سجناً فهو من العبيد الآبق[2] أمر الله بالصلاة ليسجن نفوسهم الشهوانية فتكون تكفيراً لهم وتطهيراً وتنالهم رحمته ولذلك قال « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين[3] » أى ثقيلة على النفوس إلا على نفوس قد خشعت وقلوب قد استنارت وأزلفت الى الله فى مقام القربة .

فهذا عبد دخل الدار والستر بلحاف فهو من وراء الستر لا تقر عينه لأن عينى فؤاده فى حجب الشهوات وفى غيوم الهوى أو دخان النفس وقال فى تنزيله . . وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[4] » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » فهذا لأن قلبه قلب خرِب وصدره مظلم ونفسه مشغولة مكبة على أحوالها . ومن ازدلف قلبه

(١) هكذا فى الأصل والصحيح « فى عرس » بالسين .
(٢) هكذا فى الأصل ولعلها « الآبقين » .
(٣) الآية ٤٥ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

إلى الله استغفار وخشعت نفسه وقرت عينه بما ينال من إقباله على الله وإقبال الله عليه. فإنما يقبل الله على العبد حسب إقبال العبد على الله .

والصادقون إقبالهم فى صلاتهم على أفعال الصلاة ، وعلى تلاوتهم وتسابيحهم .

والصديقون إقبالهم على معانى الأفعال ومعانى التلاوة والتسابيح والتحاميد .

وخاصة الله من الصِّديقين إقبالهم على خالقهم ثم إقبال الله عليه من حيث يقبل العبد عليه .

فإذا انتصب قائماً فإقبال العبد على قيُّوميته ، وإذا كبر فإقباله على كبريائه ، فإذا نزهه وأثنى عليه فإقباله على سبحات وجهه الكريم ، فإذا تعوذ فإقباله على ركنه الشديد ، فإذا تلى فإقباله على جوده وكرمه ، فإذا ركع فإقباله على عظمته ، فإذا سجد فإقباله على التعلق به ، فإذا جثا على ركبتيه متشهداً فإقباله على صمديته .

فبإقباله على قيوميته تثبت قدمه فى مقامه بين يديه ، وباقباله على كبريائه يوجب له العفو والستر من وراء الكبرياء حتى يكون كبيراً فى قلوب الخلق وعلى أعينهم ، وكبيراً عند أهل السماء ، وإذا دخل ذلك الستر نال استجابة الدعاء . وباقباله على سبحات وجهه يقطع عنه علائق النفس . وباقباله على ركنه الشديد يكتنفه . وباقباله على جوده يعطيه سخاوة النفس . وباقباله على عظمته يحيى قلبه وتعظم آماله . وتعلقه به يوجب له الأمان من سخطه ومن أهوال يوم القيامة .

وباقباله على صمديته يحتشى قلبه من الحياء والرحمة ويستغنى بالله عن الإمتناء . فهذه ثمرة الإقبال من خاصة الله على الله فى صلاتهم .

وأما ثمرة الصادقين : فالوفاء لهم بكل ما وضع لهم فى الأقوال والأفعال من الرحمة وتكفير السيئات لأنها توبة العبد إلى الله . وقال فى تنزيله : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم (١) » أى بالصلوات الخمس .

(١) الآية ٣١ من سورة النساء .

وأما شأن الصلاة من بين الأعمال : فان الله تبارك اسمه خلق سبع سموات وحشاها بالملائكة وتعبدهم بالصلاة لا يفترون عنها، فجعل لأهل كل سماء نوعا منها . فأهل سماء قيام إلى نفخة الصور وأهل سماء ركوع ، وأهل سماء سجود ، وأهل سماء جثاة على ركبهم ، وأهل عليين ومن حول العرش وقوف وطوائفون يسبحون بحمد ربهم . فجمع لك هذا كله فى صلاة واحدة .

كى يكون لك حظ من عبادة كل سماء وزادك القرآن تتلوه فيها فقال : « فأقيموا الصلاة (١) » وقال « الذين يقيمون الصلاة (٢) » وقال : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (٣) » وقال « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات (٤) » وقال « رب اجعلنى مقيم الصلاة (٥) » وقال « والمقيمين الصلاة (٦) » .

فلم نجد ذكر الصلاة فى موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها . فلما بلغ ذكر المنافقين قال : « فويل للمصلين (٧) » فسماهم المصلين وسمى المؤمنين المقيمين الصلاة وذلك ليعلم أن المصلين كثير والمقيمين قليل كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « الحاج قليل والركب كثير » .

فأهل الغفلة يعملون الأعمال على الترويح والثناء يذمون ولا يذكرون يوم تعرض الأعمال على الله فتقبل وتزاف (٨) .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :—

(١) من الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٢) من الآية ٤ من سورة لقمان .
(٣) من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .
(٤) من الآية ١١٤ من سورة هود .
(٥) من الآية ٤٠ من سورة إبراهيم .
(٦) من الآية ١٦٢ من سورة النساء .
(٧) من الآية ٤ من سورة الماعون .
(٨) ترد ولا تقبل .

« أول ما يحاسب العبد بالصلاة فإن قبلت قبل سائر عمله ، وإن زافت زاف سائر عمله » . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن منكم من يصلى فلا يكتب له من صلاته ثلثها وربعها وخمسها ، حتى ذكر عشرها ، لأنه لا يكتب له من صلاته ما سها عنه » . وقال فى حديث آخر : « من صلى ركعتين مقبلا على الله بقلبه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . وقال : « من صلى ركعتين لا يحدث فيها[1] نفسه بشىء من الدنيا ثم دعا الله استجيب له » .

وأما عظم شأن الصلاة باقبال العبد بقلبه على الله ، فاذا لم يكن ذلك ولم يقبل ولها[2] عن الصلاة بحديث النفس كان بمنزلة قائد وفد إلى باب الملك معتذراً من خطأ أو زلة أو منتجعاً[3] لمعروفه فلما وصل إلى الباب زاغ عنه يميناً وشمالا فى نهمة من نهماته وبعث بشاكريته وخدمه ليعتذروا عنه — فانما يقبل الملك من اعتذاره على قدر عنايته ومبالاته وينال من معروفه على قدر ذلك .

واعلم أن القلب ملك ، والأركان تبع ، وأينما مال الملك تبعه الأركان . والمعرفة فى القلب والشهوة فى النفس ، والصدر ساحة القلب والنفس ، وفى الصدر باب إليه تقضى شهواتها ، وتدبير الأمور كلها فى الصدر بين عينى الفؤاد . وإنما سمى صدراً لأن الأمور منه تصدر إلى الأركان . فنور المعرفة فى القلب وإشراقه عين الفؤاد وفى الصدر .

فبذكر الله يرطب القلب ويلين ، وبذكر الشهوات يقسو القلب وييبس ، فاذا اشتغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات كان بمنزلة شجرة إنما رطوبتها ولينها من الماء ، فاذا منعت الماء يبست عروقها وذبلت أغصانها ، وإذا منعت السقى أصابها حر القيظ فيبست الأغصان ، فاذا مددت غصناً منها إلى نفسك لم ينقد لك وانكسر فلا تصلح هذه الشجرة إلا أن تقطع فتصير وقوداً للنار . فكذلك القلب إنما ييبس

---

(١) هكذا فى الأصل والأصح فيهما بالتثنية (٢) ولها من الهو
(٣) طالباً.

إذا خلا من ذكر الله وأصابته حرارة النفس وملاذ الشهوات فامتنعت الأركان من الطاعة فاذا مددتها انكسرت ولا تصلح إلا أن تكون حطباً للنار الكبرى .

قال الله تبارك اسمه : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين[1] » . فاذا كان الصدر منشرحاً بالنور كان القلب رطباً ، والأركان لينة ، فاذا مددتها إلى أمر الله انقادت وإذا لم يكن هكذا كان القلب قاسياً والأركان يابسة كزة[2] فاذا مددتها لم تنقد . وإنما يرطب القلب بالرحمة . وما من نور فى القلب إلا ومعه رحمة الله بقدر ذلك النور فهذا هو الأصل .

ثم إن الله تبارك وتعالى رحم العباد إذ كانوا أهل حبايته من بين خلقه فهداهم لتوحيده ، وعلم أن الشهوة غالبة على القلب ومهلكة له إذا افترضت غفلة القلب عن ذكر الله ، فهيأ للموحدين عرساً ودعاهم إليه فى كل يوم وليلة خمس مرات . وإنما سمى العرس عرساً : لأنه طعام قد اجتمعت فيه الألوان ولكل لون لذة ، وفى كل لون منفعة غير ما فى اللون الآخر ، فكذلك الصلاة دعاهم إليها وهيأ لهم أفعالا مختلفة تعبدهم بها ليلذذهم بكل لون من العبوده ويزينهم بها ، وليكون كل فعل من تلك الأفعال تكفيراً لمذموم فعل كان منه ، وليثيبه على كل فعل منها نوراً فى قلبه ، وثواباً فى معاده .

فهيأ لهم الوقوف والاستقبال ليعلمهم التكبير ، ثم الثناء ، ثم التعوذ ، ثم تلاوة القرآن ، ثم الركوع ، ثم السجود ، وفيهما التسبيح ، ثم الانتصاب قاعداً ، وفيه التشهد ، ثم التسليم . فهذا بمنزلة ملك قد هيأ لعبيده عرساً ، وفى ذلك العرس ألوان الأطعمة وألوان الأشربة حتى يصدرهم من عنده وقد أشبعهم ورواهم . فقد

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر .
(٢) الكزوزة : هى اليبوسة والانقباض.

كان العبيد نالهم القحط والجوع والظمأ فأصدرهم من عنده وقد تملأوا من الطعام شبعاً، وتضلعوا من الأشربة رِيًّا — إلى أن يأتى قحط آخر فينالهم منه الجوع والظمأ فهذا دأبهم أيام الحياة .

فالغفلة التى تحل بقلوبهم هو القحط ، لأن العبد ما دام فى الذكر فالرحمة دائمة عليه كالمطر . فاذا غفل قحط ، والصدر فى ذلك كالسنة الجرداء اليابسة وحريق الشهوات فيها كالصمائم[1] ، والأركان معطلة عن أعمال البر، لأن البر خير قد امتنع فى القلب على أن ينتشر فى الجوارح نوره ، فتعمل كل جارحة بما تستبشر وتطلب وفى كل جارحة لله على عبده طاعة ، فاذا استعملها بما لم يطلق له فهى معصية ، فان استعملها بما أطلق له ولم يبتغ به وجه الله فهو بطالة وقد خاب سعيه، لأنه لا يؤجر فيه ولا يحمد ، ويحاسب عليه يوم القيامة ماذا أردت به ! فاذا استعملها بما قد أطلق له وابتغاؤه رحمة الله فقد تاجر الله بتجارة ربيحة وله الجنة ورضوانه فيها . فاذا جاءت الغفلة جاءت المعصية، فإذا وقى المعصية وعصم فالبطالة كائنة لا محالة والحساب قائم ويذهب عمره باطلا ، وإنما خلق للعبادة لا للبطالة وقضاء النهمة .

فما ظنك برجل أعطى ماء ليسقى كرمه وزرعه فذهب وأهمله حتى جرى فى البرارى ، أليس هو قد أهلك زرعه ، وقعد مذموماً محسوراً ؟

فهذا صفة من قد عصم ووقى المعصية إلا أنه فى غفلة عن حركاته وعن ذكر الله فى تلك الأوقات ، فاذا أقبل أو أدبر أو قعد أو مشى أو أخذ أو أعطى أو أكل أو شرب أو لبس أو نطق أو أنصت — كان كل ذلك فى غفلة ، وتناول على نهمة النفس لم يطلب لذلك ابتغاء رضوان الله ، فهذا خسران بيِّن أن يعطل أكثر عمره بأعمال لم يعبد الله بها .

---

(١) جمع صمام وهو السدادة . كما تقول : « صمام القارورة أى سدادتها » .

فدعا الله الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيأ لهم فيها ألوان العبادة ، لينال العبد من كل قول أو فعل شيئاً من عطاياه .

فالأعمال كالأطعمة ، والأقوال كالأشربة ، فهى عرس الموحدين ، وإنما أمر العبد بحفظ هذه الجوارح السبع : البصر والسمع واللسان واليد والرجل والبطن والفرج .

ومجمع ذلك كله فى الصدر : لأن ذكر الأشياء يهيج من الشهوة إلى النفس ، ومن النفس إلى الصدر ، ومن الصدر إلى الجوارح فهى بمنزلة سبعة أغنام قد وكل بها العبد واسترعى رعايتها وحفظها ، ولكل شاة منها وادى[1] مرعاها فيه غير مرعى الشاة الأخرى فهو راعيها ، فاذا نام الراعى ضاعت الأغنام ، لأن فى كل واد من هذه الأودية سموماً قاتلة من الكلأ ، وجرفاً هاوية ، وآباراً مردية ، وذئاباً ضارية ، فاذا أغفل الراعى هلكت الغنم فلا يكاد يسلم من هذا الذى وصفنا ، وان حفظ ، فاذا وقع فى بئر وتكسر لم يتركه فيها ولكنه يستخرجه ويجبر كسره يلتئم ويبرأ ، وإذا أصابته السموم من الكلأ بادره « بالباذر » هو من السمن واللبن ، وإذا وقعت الذئاب فيهن أرسل الكلاب حتى يستابن منهن .

فهذا دأب الراعى حتى تنفذ المدة ويرعى الراعى فيتجارز له عن تلك الغفلات التى غفل فانه قد أصلح ما فسد منه فذلك قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[2] » . ثم قال : « أولئك فى جنات مكرمون »[3] . فالأمانات هى الجوارح السبع أؤتمن عليهن الآدمى ووكل برعايتهن .

والعهد هو الذى عليه[4] يوم الميثاق من أن يعبده بهذه الجوارح فلا يعصيه ، فاذا كان راعياً لهذه الجوارح فهو فى جنات مكرم بألوان الكرامات ، ثم قال فى

---

(١) هكذا فى الأصل والصحيح « واد » .
(٢) الآية ٨ من سورة المؤمنون ، الآية ٣٢ من سورة المعارج .
(٣) الآية ٣٥ من سورة المعارج .
(٤) لعله أسقط هنا « أخذ » .

تنزيله « كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم[٤] » وقد عمل هذا الراعى السوء حيث غفل وأهمل الأغنام. ثم جمعها فى هذه الصلاة بين يديه وأصلح مافسد منها من الكسر وإفساد الذئب والسموم. فردها إلى مولاه مع العيوب: أثر الكسر عليه وأثر الجراحة عليه، فقبله المولى بكرمه إذ لم يجىء بها ميتة. فهذا بمنزلة التائب لم يواف القيامة وجوارحه ميتة بالمعصية لم يحيها بالتوبة فاذا تاب وأصلح ما أفسد فقد جاء بها حية ولكنها معيبة فأوجب الله له الرحمة على نفسه وأنزل بذلك قرآناً. وجاء فى الخبر أنه قال لمن ضيع: ياراعى السوء: أكلت اللحم وشربت اللبن ولبست الصوف ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسيرة ولم ترع فى مرعاها: اليوم أنتقم لهم منك. فهذا مثل مضروب كأنه يقال تفاوتت منافعها ولم تحفظها من المهالك.

فكل صلاة هى توبة وما بين الصلاتين غفلة وجفوة وزلات وخطايا. فبالغفلة يبعد من ربه فاذا بعد أشر وبطر، لأنه يفتقد الخشية والخوف، وبالجفوة يصير أجنبياً، وبالزلة يسقط وينزلق قدمه فتنكسر، وبالخطايا يخرج من المأمن فيأسره العدو. فأفعال الصلاة مختلفة على اختلاف الأحوال التى جاءت من العبد فبالوقوف يخرج من الإباق: لأنه لما انتشرت جوارحه نقصت تلك العبودة وأبق من ربه. فاذا وقف بين يديه فقد جمعها من الانتشار ووقف للعبودة نخرج من الإباق. وبالتوجه إلى القبلة يخرج من التولى والاعراض. وبالتكبير يخرج من الكبر. وبالثناء يخرج من الغفلة. وبالتلاوة يجدد تسليما للنفس وقبولا للعهد. وبالركوع يخرج من الجفاء. وبالسجود يخرج من الذنب. وبالانتصاب للتشهد يخرج من الخسران. وبالسلام يخرج من الخطر العظيم.

(١) الآية ٥٤ من سورة الأنعام.

شأن الوقوف

وذلك أنه لما وقف فهو عبد قد ألقى ببدنه[١] سلما بين يدى مولاه ومذعناً لطاعته تذللا. فهو راع قد جمع غنمه من الرعى إلى موضع الماء ليسقيها بما يمطره عليه مولاه من الرحمة، وإذا استقبل القبلة فهو عبد قد توجه بأغنامه إلى المعرض ليعرض على مولاه يستجلب بذلك رفده ومعونته. وإذا كبر فقد سلم الكبر إلى الله وتبرأ منه ووضع نفسه لكبريائه؛ فاذا وضع نفسه رفعه الله لأنه صار فى صورة العبيد، والله يحب عبيده ماداموا له كهيئة العبيد، فاذا تجبروا مقتهم لأن ذلك منهم كالمضاهاة، وإذا أثنى خرج من الغفلة وحيي قلبه لأن المعرفة فى قلبه كجمرة توقد، فاذا غفل فهى جمرة فوقها رماد؛ فاذا أثنى فهو كنفخ وصل إلى الرماد فأثاره، وتوقدت الجمرة فأضاءت البيت وحمى، ولكل كلمة من الثناء نور؛ ولتلك الأنوار تفاوت كتفاوت الكلمات. فللتسبيح نور، ولقوله اللهم نور، ولقوله وبحمدك نور، ولقوله وتبارك اسمك نور، ولقوله تعالى جدك نور، ولقوله لا اله غيرك نور، وأنوارها على قدر معانيها، ولكل نور إشراق على حدته، وبعضها أقوى من بعض فإذا اجتمعت هذه الأنوار فى صدر عبد فمنها ناجى ربه بهذه النجوى ومن هذا الإشراق نطق بما نطق. فرجع إلى المولى بحال[٢] تملأ الخزائن. ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « التسبيح يملأ نصف الميزان والحمد لله تملأ الميزان كله » فلا تحسبن أن هذا لأهل الغفلة إنما هذا لهذه الطبقة التى ذكرنا بديا وهم « أهل النفس ».

(١) هكذا فى الأصل ولعلها « بيديه ».
(٢) فى الأصل « بجمال »

«تفسير أنوار الكلمات»

فإن قال قائل : أوضح لنا ما قولك إن لكل كلمة نوراً : قال إن الكلام يعظم شأنه إذا كان على ترائى القلب أن يكون الصدر خالياً منشرحا وعينا الفؤاد فى الصدر تزهوان بالنور الذى فيهما من نور الحياة بالله وعلم الكلمات التى يقولها فى الصدر بمعانيها راتبة على منازلها . فاذا نطق بها عن رؤية الفؤاد تلك المعانى ثارت تلك الأنوار فامتلأ الصدر وأشرق نور العقل بما عقل تلك المعانى نخرج الكلام مع تلك الأنوار إلى الله ، فالكلام قوالب وحشو القوالب تلك الأنوار ، فاذا صارت إلى الله انتشرت تلك الأنوار وأشرقت بين يديه فملأت العرصة [1] والخزائن وبدو هذه الأنوار التى خرجت من العبد فى حشو هذه الكلمات إنما أخذها العبد من العلى بلحظات عينى الفؤاد . فالتسبيح من حظيرة القدس ، والحمد من عشه ، واللهم من المجمع والمبدأ ، وتبارك اسمك من المجرى ، وتعالى جدك من الأحدية والفردية ، ولا إله غيرك من المعرفة ، والتعوذ من المعاذ . ثم إذا تلى القرآن فلكل كلمة ترائى ظاهر، ولكل حرف من الكلمة ترائى باطن، فركب قلبه بذلك الترائى إلى ولى الحكمة . والحروف مركب تلك المعانى التى فى الكلمة . فاذا ركع قد خرج من جفاء [2] لأنه تناول النعمة عن غفلة قلب فكان بمنزلة من ناوله الملك شيئاً فتناوله من وراء ظهره ، فهذا جفاء عظيم وسوء أدب حيث لم يقبل عليه بوجهه ، فى هذا تصغير الشىء والتصغير فعله . وكيف يقدر أن يعظم نعمته وهو لايبصرها . إنما يبصر شخص النعمة ولا يبصر كيف رباها بربوبيته وكيف تحولت هذ. النعمة حالا بعد حال حتى استكملت بلونها وطعمها ورطوبتها ودسومتها

(١) — هى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

(٢) هكذا فى الأصل ولعله قد أسقط الألف واللام.

وعذوبتها وامتلائها واحتشائها وزينتها وبهجتها : فهل صارت هكذا إلاَّ بربوبيته وهى الجلال والعظمة والبهاء والمجد والرحمة واللطف ؟ وكيف يقدر أن يعظمها وفرحه بالنعمة لا بفعل المنعم فان النعمة تدق فى جنب فعل المنعم لأن النعمة خرجت إليك من رأفته ورحمته .

فالرأفة والرحمة من ذلك أعظم من النعمة وربوبيته فى ذلك أعظم من ذلك كله، فلما تناولت هذه النعمة على الغفلة والشره بغير تعظيم لها ولا قبول فى الرأفة والرحمة: صارت جفوة عظيمة فرضى منك الكريم بأن خضعت له بالركوع فثنيت له صلبك ووضعت له قامتك مراقباً لعظمته تتصاغر له كما صغرت نعمته . ألا ترى أنك تؤمر أن تقول «سمع الله لمن حمده» عند خروجك[1] منه لأن ذاك مقام الحمد كأنك تحمده بأن ثنيت له صلبك وخضعت بذلك كله، فاذا ركعت هكذا خرج لك من الله معروفه بما خرجت من الجفوة بهذا الركوع .

قال له قائل : وما المعروف ؟ قال جهلك من معارفه فان مع الجفاء نكرة تكون فى حال الجفاء عنده بحال كأنه لايعرفك . ألا ترى أنه جاء فى الخبر عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : إن العبد ينادى يوم القيامة فى تلك الكلمة [2] « يا رب يا رب ، فيقول الله جل وعلا من أنت إننى لا أعرف إلا من تعرّف إلىّ فى دار الدنيا» . وروى عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احفظ الله يحفظك — احفظ الله تجده أمامك — تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ومن أجل ذلك سميت عرفات، لأن العبد يذهب

(١) أى من الركوع ة

(٢) لعلها بتلك الكلمة.

إلى ذلك الموطن فيتعرّف إلى الله بالتوبة والاعتذار ويحج بيته . فمن جفوة العبد يظهر من المولى نكرة . فإذا ركع خرجت من ركعته المعرفة فيصير فى معارفه حتى إذا قال يا رب فيقول الله « لبيك عبدى أعرفك ولا أنكرك » ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا دعا العبد فى الرخاء ثم أصابته شدة فدعا قالت الملائكة : صوت معروف ودعاء مستجاب ، وإذا ترك الدعاء فى الرخاء وأصابته شدة فدعا قالت الملائكة : صوت منكر ودعاء غير مستجاب » .

حدثنا بذلك الحسن بن عمر بن شقيق البصرى سليمان بن ظريف عن مكحول عن أبى الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ألا ترى أن يونس عليه السلام لما نادى فى الظلمات قال الله تبارك اسمه « فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين[1] » ثم قال « فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون[2] » فقد كان يعرف الله بالأعمال الصالحة فأغاثه وقال فرعون « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل[3] » قال الله تبارك اسمه .. « آلآن وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين[4] » فأنكره .

فالراكع خرج من جفوته حيث تناول النعمة على صورة النكرة لا على صورة

(١) الآية ٧٨ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ من سورة الصافات ،
(٣) الآية ٩٠ من سورة يونس
(٤) الآية ٩١ من سورة يونس .

المعرفة . وهو فى أصل التوحيد يعرفها فى ربه فلما ركع كانت منه خضعة تذهب بالجفوة . فإذا سجدت خرجت لك من السجدة القربة .

ألا ترى الى قوله «واسجد واقترب[1]» ، لأنك لما سجدت خضعت له فألقيت نفسك بين يديه تذللا ووضعت بهاء وجهك وجمالك لبهاء وجهه الكريم وكان وضع كرمه هناك فلما فعلت ذلك تكرم عليك فمدك إلى محل القربة وضمك إلى محل العطف والبرّ ، فإذا قعدت منتصباً متعرضاً له بآمالك لديه وارتقابك فيما عنده فقد خرجت من الخسران والبطالة إلى التجارة الربيحة ووصلت بنفسك سالمة إلى الساحل وقد نظر المولى إلى سلمك ، وعاين معاملتك ، فى تجارتك فربحك الدرهم أضعافاً لا تحصى وكان رأس المال التوحيد ، والتاجر قلبك ، والربح هذه الأشياء .

(١) الآية ١٩ من سورة العلق

« تفسير التحيات لله »

فاذا تكلمت بالتحيات لله : كان لكل منها نور حشوها :

فأما قوله «التحيات لله» فحدثنا الحسن بن مطيع — حدثنا بن مجاهد البصرى — حدثنا إبان بن موسى عن الحسن البصرى فى قوله التحيات لله قال :

« كانت لهم فى الجاهلية أصنام صغار يحملونها معهم أينما ذهبوا — فكانوا يمسحون وجوهها ويقولون : «لك الحياة الباقية» .

فأمر أهل الصلاة أن يجعلوا هذه التحيات كلها لله .

وأما قوله : والصلاة « فانهم كانوا يفزعون فى نوائبهم إلى أصنامهم تصلية[1] وابتهالا .

والصلاة : وقوف العبد افتقاراً — فلا يصلح هذا الوقوف مفتقراً إلا لله : فأمر أهل الصلاة أن يجعلوا هذه التصلية لله .

وأما قوله : « الطيبات » فهن الكلمات الخمس اللاتى لاتصلحن إلا لله وليس لمخلوق فيها شرك وهو قوله : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولاحول ولاقوه إلا بالله ، وإنما سميت «طيبات» : لأن الموحدين يتدنسون بالغفلات والزلات ، فاذا نطقوا بهذه الكلمات خرجوا من الأدناس وطابوا . وذلك أنه كائن فى الآدمى هذه الشهوة والغفلة ، فإذا ساء أدبه بين يدى عظمة الله ، فقد صار ذا عيب فالتسبيح يخرج من العيوب ، والتسبيح يتنزه به الرب فيترضى ربه بذلك التنزيه . فاذا أنعم عليه فإهمال النعمة متراكمة فإنما يضعها عن نفسه بالحمد — فإنما تخرج من وباله بأن تنسب الكبر لله : فتقول : الله أكبر فتبرأ من الكبر . وإذا وله قلبه إلى شيء

(١) التصلية هى الوقوف والدنو .

فذاك منه سقوط منزلة : رجع إليه بلا إله إلا الله فيجدد الوله إليه وإذا دخل فى الأمور على الاقتدار خذل : فأمر أن يقول : « لاحول ولاقوة إلا بالله » ويتبرأ بهذا القول من الإقتدار .

فهذه الكلمات الطيبات لاتصلح أن تقال لآدمى ذلك .

وأما قوله : « السلام عليك أيها النبى » فإن الله تبارك وتعالى سلم على عباده الذين اصطفى ثم خص فقال « وسلام على المرسلين[1] » .

فمن ناله سلامه : احترز بذلك من كل آفة فى الظاهر والباطن . فاذا قال : « السلام عليك أيها النبى فانه أخرجه مخرج المعرفة لامخرج الفكرة ، فهذه « الألف واللام » علامة المعرفة كأنه يشير إلى شيء معلوم ، وهو ذلك السلام الذى سلم به رب العالمين على رسوله وعلى سائر المرسلين ، فكأنه يسأل لنبيه ذلك السلام ، وقد ندب العباد إلى ذلك فقال : « يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[2] »

فقد صلى عليه ربنا وسلم علينا ثم ندبنا إلى ذلك . وكذلك يسأل العبد لنفسه فيقول :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وقال فى تنزيله « فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة[3] » فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إذا قال العبد : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : أصابت كل عبد صالح فى السموات والأرض » .

فاذا فرغ من التشهد وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم : صدر بذلك السلام من عند رب العالمين إلى حفظته ومن معه فى تلك الصلاة .

(١) الآية ١٨١ من سورة الصافات .
(٢) من الآية ٥٦ من سورة الأحزاب .
(٣) من الآية ٦١ من سورة النور .

« شأن العُرس »

فهذا عرس قد هيأه الله رب العالمين لأهل رحمته فى كل يوم وليلة خمس مرات حتى لا يبقى لهم دنس ولا غبار .

فان الله تبارك وتعالى اختار الموحدين ليباهى بهم فى الملأ الأعلى وليباهى بهم فى الجمع الأكبر فى تلك العرصة . لأن الملائكة سألت ربها فقالت : يارب : خلقت بنى آدم وجعلت الدنيا لهم يتمتعون فيها — ومنا الملائكة المقربون — ومنا الصافون والمسبحون — ومنا الكرام الكاتبون : فاجعل لنا الآخرة فقال لن أفعل . ثم عادوا فى المسألة . فقال لن أفعل . ثم عادوا . فقال لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . هم عبادى المقربون . فآدم وولده ظهر خلقهم من يده من المحبة — والملائكة ظهر خلقهم من القدر بقوله كن .

فمن محبته للآدميين يفرح بتوبتهم ، ومن فرحته بتوبتهم خلقهم مع الشهوات والشياطين ودار الابتلاء حتى يتهافتوا ويسقطوا ثم يتوب عليهم ويرجعون إليه مع الصراخ والعويل واحتراق القلوب . فيكون أثبت لمودتهم وقيامهم بين يديه وبذلهم النفوس له ، فيستر عليهم ذنوبهم وخطاياهم ، ويظهر محاسنهم ويجعلها لباسهم وكسوتهم ، والرحمة من فوق ذلك اللباس ، وأردية الكبر فوق ذلك فيكرمهم ويجلهم ويعظم شأنهم حتى يباهى بهم فى ذلك الجمع ويظهر عذره عند الملائكة فى منعه إياهم داره ويقول لهم : يا معشر الملائكة إن محاسنكم خرجت منكم ، ومن النور خلقتكم وأنتم فى أعلى المملكة تعاينون عظمتى ومحبتى وسلطانى ، وقد عريتم عن الشهوات والشياطين ، والآدميون خرجت هذه المحاسن من نفوسهم الشهوانية ، والشياطين قد أحاطت بهم فى أدانى المملكة ، ومن التراب خلقتهم . فبذلك استوجبوا دارى وجوارى .

« باب الوضوء »

حدثنا عيسى أحمد العسقلانى — حدثنا بشير بن بكر التنيسى عن سعيد بن سنان عن أبى الزاهدية عن كثير بن مرة عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن العبد إذا توضأ فأبلغ أما كنه ، وحفظ مواقيتها وحدودها ومعالمها — رفعت إلى الله مضاءة مسفرة تضىء ما بين الخافقين ، وتعلم ما بين الخافقين غير الثقلين فتلتفت إلى صاحبها فتقول : حفظك الله كما حفظتنى فيؤذن لها على الله فتوقف بين الملائكة ويؤذن لها بالصلاة عن صاحبها إلى يوم القيامة ، وإذا توضأ فلم يبلغ أما كنه ولم يحفظ مواقيتها وحدودها ومعالمها — رفعت إلى الله سوداء مظلمة يعلم ما بين الخافقين : فتلتفت إلى صاحبها فتقول . ضيعك الله كما ضيعتنى فتلف كما يلف الثوب الخلق[1] فيرمى بها وجه صاحبها » .

حدثنا يعقوب بن شيبة — حدثنا محاضر بن الموزع — حدثنا الأحوص ابن حكيم — حدثنى خالد بن سعدان عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه .

---

(١) أى الثوب البالى . المهلهل .

(صورة الصلاة من بين الأفعال)

وأما صورتها[١] من الأفعال : فإنها وضعت إظهاراً للعبودية وسبباً لتطهير الموحدين ، وستراً لمساوىء أعمالهم . فصورت أفعالها على أفعال العباد لتقابل تلك المساوىء فتسترها ليقدم غداً على ربه مستوراً وقال تعالى : « وأقم الصلاة طرفَيِ النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات »[٢] .

فالعبد إنما خلق ليكون له عبداً كما خلق فيثاب على كونه هذا[٣] : فيصير غداً حراً ويكون فى جوار الله ملكا ، وخلق ليترك مشتهياته لمشتهيات الله فى أحواله ليسكن غداً داراً له فيها ما اشتهت نفسه . فلم يثبت العبد وافتتن بما ركب فيه من الشهوات فتكبر وأطاع هواه ولها عن وعد الله ووعيده ، وعرض نفسه للعقوبة ، فدعى إلى هذه الصلاة التى افترضت عليه فقيل : قم بين يدى ربك ملقياً ببدنك سلماً كالعبد الذى قد كان أبق من مولاه فجاء فألقى بيديه ، ثم عظم ربك بالتكبير فانك قد كنت اجترأت حيث أعطاك جوارح سبعاً ، وأمرك بحفظها ورعايتها ، فضيعت الرعاية للأمانة ، فجئت الآن بها فجمعتها فى هذا الموقف لربك لتكون هذه حسنة تستر سيئتك ، ثم قل : سبحانك : تنزهه عما عاين منك . ثم قل : اللهم : وهى جماع للأسماء ، وبحمدك : أى بصنعك المحمود ، وتبارك اسمك : من البركة ، أى باسمك قامت الأشياء وصلحت ، وتعالى جدك : أى علت عظمتك وغناك ، ولا إله غيرك : ثم تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حتى يبعد منك عند تلاوتك القرآن حتى لا يصل إلى أن يلقى على لسانك الباطل ، ثم تتلو القرآن ، ثم تركع لتخضع لربك مكان ما جفوت ، فإنك كنت تتناول نعمه على الغفلة أشراً وبطراً ،

---

(١) يقصد الصلاة .
(٢) الآية ١١٤ من سورة هود
(٣) أى كونه عبدا .

وإنما ناولك نعمه لتتواضع وتذل له وتذكره عند تناوله[١] . فشغلك ولوعك بتلك النعمة وفتنتك بها حتى سهوت عن ذكره ، فلم تورثك الحياء عن معاصيه ، كما أن رجلا لو أحسن إليك فى دار الدنيا فكثر إحسانه لاحتشمت[٢] من أن تخالفه فى أموره واستحييت .

فرب العالمين أحق بذلك ، فهذا من شره العبد وتجبره ، فأمر بالركوع ليخضع له بدل ما تجبر فيستر بهذا الخضوع تجبره .

ثم يسجد وهو غاية الخشوع يلقى جسده بين يديه منكساً يديه . أى إنما أذنبت ونكست لحقوقك استكباراً فالآن قد ألقيت نفسى منكساً تواضعاً . ليستر ذلك الفعل منك الذنب الذى استكبرت به . ثم تجلس[٣] جاثياً بين يديه كهيئة العبد الذى يتضرع إلى ربه سائلا حوائجه — راغباً إلى الله مفتقراً . ثم يسلم على الحفظة وعلى من معه تسليم الإيمان فيكون قد انصرف من صلاة إنما هى محاسن قد أذهبت مساوئه .

وإن الله تبارك وتعالى شرف هذا الآدمى المؤمن وكرمه فيعبده بصلاة جعل له فيها حظاً من عبادة أهل كل سماء .

يروى فى الخبر أن أهل سماء الدنيا سجود منذ خُلِقوا ، وأهل سماء الثانية ركوع منذ خلقوا ، وأهل سماء الثالثة قيام منذ خلقوا ، وأهل سماء الرابعة قيام على رجل واحدة منذ خلقوا ، وأهل سماء الخامسة قعود جُثاة على ركبهم ، وأهل سماء السادسة منبطحون على وجوههم ، وأهل سماء السابعة على خفقان الأجنحة من خوف الله ومن حول العرش قد حفوا بالعرش يطوفون به ، ومنهم صفوف قيام كلهم للتسبيح والثناء والاستغفار للموحدين والبكاء عليهم رحمة لهم .

---

(١) لعلها : تناولها « أى النعم »
(٢) استحيت
(٣) هكذا فى الأصل والصحيح يجلس بالياء

فضمهم فى هذه الصلاة الواحدة لهذا المؤمن من عبادة أهل كل سماء حتى توافى صلاته العرش وقد أخذ بحظه من عبادة أهل السموات وأهل عليين وحملة العرش فيصبح لصاحبها من الرحمة العظمى التى تنقسم على من تحت العرش إلى الثرى من الحظ الأوفر .

حدثنا صالح بن محمد — حدثنا عطاف بن خالد — حدثنا حرملة عن سعيد ابن المسيب قال : « من صلى الخمس فى جماعة فقد ملأ البرين والبحرين عبادة » .

حدثنا سفيان بن وكيع — حدثنا أبى عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصارى — عن صالح بن كيسان — عن أبى مروان الأسلمى عن أبيه عن جده — عن أبى ذر رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول :

« الصلوات الخمس من لقى الله بهن لم ينتقص منهن شيئاً غفرت له ذنوبه وإن كانت ملء الأرض » .

حدثنا صالح بن عبـــد الله — حدثنا فهد بن الفضر عن أبيه عن أبى سعيد الخدرىّ قال :

« خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن ربكم يقول : من تطهر فى بيته ثم مشى إلى صلاة تعظيما لحقها ، ورغبة فيها ، وإيثاراً لها على غيرها ـ فله عهد عندى : ألا أعذبه أبداً . ومن يترك صلاة استخفافاً بحقها ورغبة عنها وآثر عليها غيرها : فلا عهد له عندى وهو فى المشيئة إن شئت عذبت وإن شئت عفوت » :

قال أبو عبد الله رحمه الله : والعبد عندنا هو الذى كتب الله له فى التنزيل من قوله : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفرّ عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدخلا كريماً »[1] .

(١) الآية ٣١ من سورة النساء .

حدثنا أبى — حدثنا الفضل بن دكين — حدثنا عبد الرحمن بن النعمان الأنصارى حدثنى إسحاق بن سعد بن كعب بن عجرة عن أبيه عن كعب بن عجرة قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى المسجد سبعة : ثلاثة من عربنا ، وأربعة من موالينا . قال ما يجلسكم ؟ قلنا ننتظر الصلاة ، فنكث بأصبعه فى الأرض ثم رفع رأسه فقال : هل تدرون ما يقول ربكم ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال إنه يقول :

« من صلى الصلاة لوقتها وأقام حدها : كان له عندى عهد — أدخله الجنة ، ومن لم يصلها لوقتها ولم يقم حدها : لم يكن له عندى عهد — إن شئت أدخلته الجنة وإن شئت أدخلته النار » .

حدثنا محمد بن أبى مطيع — حدثنا مروان بن معاوية عن سعيد عن قتادة عن حنظلة الأسيدى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من حافظ على الصلوات الخمس : على وضوئها وركوعها وسجودها حرم على النار » .

حدثنا الفضل بن محمد — حدثنا محمد بن المصفى الجمحى — حدثنا بقية عن دويد بن نافع عن بن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا قتادة بن ربعى أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تبارك اسمه وتعالى » إنى افترضت على أمتك خمس صلوات ، وعهدت عندى عهداً أنه من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته فى عهدى ، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندى » .

« محل الصلاة من الله عز وجل »

أما محلها من الله وسلطانها فى السموات :

فحدثنا داود بن حماد القيسى — حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى — حدثنا سعيد ابن عبدالعزيز — حدثنى يزيد بن أبى مالك عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عرج بى إلى السماء السابعة فاذا فيها ابراهيم صلى الله عليه وسلم ثم انتهيت إلى سدرة المنتهى فغشينى ضبابة فخررت لله ساجداً فقيل لى : يا محمد : إنى قد فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة يوم خلقت السموات والأرضين . فقم بها أنت وهم . فانصرفت فأتيت على إبراهيم فلم يسألنى شيئاً . ثم أتيت على موسى وهو فى السماء السادسة فسألنى : كم فرض عليك وعلى أمتك ؟ فأخبرته . فقال لى إرجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا تقوم بها . فرجعت فخففت عنى عشراً . ثم أتيت على موسى فأخبرته فقال ارجع فسله التخفيف . فمازلت أرجع حتى بقى خمس ، وقيل لى خمس بخمسين . فعلمت أنها عزمة من ربى . ثم رجعت إلى موسى فقال لى ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن بنى إسرائيل فرض عليهم صلاتان فلم يقوموا بهما . فلم أرجع حين علمت أنها من ربى عزمة » .

حدثنا هارون بن موسى بن أبى علقمة الفزوى . حدثنا أبو حمزة أخبرنى يونس ابن يزيد عن الزهرى عن أنس بن مالك قال :

« فرض على أمتى خمسون صلاة فمازال يرجع ويخفف حتى قيل : خمس بخمسين وغشيت السدرة ألوان لا أدرى ما هى » .

حدثنا عمر بن أبى عمر — حدثنا محمد بن عزيز الإيلى — حدثنى سلامة ابن روح — حدثنى عمى عقيل بن خالد — حدثنى ابن شهاب — حدثنى أنس بن

مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله وزاد فيه : قال : عرج[1] حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريز الأقلام ، وقيل لى هى خمس وهى خمسون لا يبدَّل القول لدىَّ فرجعت » .

حدثنا صالح بن عبد الله — حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبى هارون صالح بن محمد عن الربيع بن بدر عن أبى هارون وصالح عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه .

حدثنا الحسن بن على العجلى — حدثنا ابن نمير — حدثنا مالك ابن مغول عن الزبير بن عدى عن طلحة عن مصرف عن مرة عن عبد الله قال : « لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سدرة المنتهى ، وإليها ينتهى ما يعرج فيقبض وما يهبط من فوقها فيقبض « إذ يغشى السدرة ما يغشى » كأنها فراش من ذهب فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً :

١ — الصلوات الخمس

٢ — وخواتيم سورة البقرة

٣ — وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته إلا المقحمات[2] »

قال أبو عبد الله رحمه الله : تأويله أنه أعطى أن يغفر لأمته ممن لا يشرك بالله شيئاً بهذه الصلوات الخمس إلا « المقحمات » .

والمقحمات هى الكبائر التى وعد[3] الله عليها النار — أى تقحمه تلك الكبيرة فى النار .

---

(١) لعله أسقط « بى » (٢) هى الكبائر التى تقحم صاحبها وتدخله فى النار .

(٣) هكذا فى الأصل والصحيح أوعد

فالصلاة أول فريضة كتبت على هذه الأمة فى هذه الشريعة وأهلها مسئولون عنها يوم القيامة فى أول جسر من الجسور السبعة ، فبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يقول :

انظروا « إلى صلاة عبدى فإن وجدت ناقصة قال أكملوها من تطوعه »

وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أول ما يحاسب العبد فى صلاته . فإن قبلت قبل سائر عمله ، وإن زافت زاف سائر عمله[١] »

فالصلاة اعتذار العبد إلى سيده افترض الله علينا وكتب علينا القيام بها فى مواقيتها بوضوئها وحدودها فقال: « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا »[٢] وبين مواقيتها فى قوله « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون[٣] » ثم قال « وعشياً وحين تظهرون[٤] » فالحين الساعة يقول : ساعة تمسون وهى « المغرب » وحين تصبحون أى ساعة تصبحون وهى « الفجر » وعشياً إذا انتهت الشمس فى مجراها من السماء للحدور[٥] بمكان إذا استقبلتها وأنت قائم على خلقتك لا تضع رأسك ولا تصوبه فوجدت الشمس بحذاء بصرك فاذا نظر إليها من غير تكلف أعشت الأبصار .. فهى العشى فذاك « العصر » وحين تظهرون : أى الساعة التى تكون الشمس على ظهر القبة ، وهى الزوال .

وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه الآية : (هذا حين افترض الله مواقيت الصلاة) .

---

(١) فى الأصل سائر أعماله ولكنها لا توافق صدر الحديث .
(٢) من الآية ١٠٣ من سورة النساء .
(٣) من الآية ١٧ من سورة الروم .
(٤) من الآية ١٨ من سورة الروم .
(٥) الحدور هو الحط من علو إلى أسفل .

وأما صلاة العشاء ففى قوله : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل)[١] فقالوا : الدلوك — الميل — والميل مرتان : مرة تميل عن المستوى فتزول ، ومرة تميل للغروب ، فأمرنا باقامة صلاة (الظهر) وصلاة (المغرب) فى هذه الظلمة ، ثم قال : (إلى غسق الليل) ، والغسق السيلان . وهو أن يسيل الليل فيملأ أقطار الأرضين كلها فهو (العشاء) وقال فى آية أخرى : (من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء)[٢] .

فالصلاة إقبال العبد على ربه بقلبه وجميع جسده ، قد وضؤ أطرافه واستقبل أطرافه وجهته ، وأخذ زينته من ستر العورة .

فاذا كان كذلك قدم على ربه وله عنده عهد يدخله به الجنة ، وذلك العهد قد سبق منه[٣] إليه[٤] فى التنزيل فقال : (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات)[٥] فاذا ذهبت السيئات بهذه الحسنات دخل الجنة .

وقال « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم[٦] » — أى بالصلوات الخمس . فبالصلاة تكفير السيئات ومحوها . فإذا قدم عليه : وجد العهد هناك قد تقدمه

وإذا أقبل بجميع جوارحه وقد توضأ وستر العورة واستقبل الوجهة[٧] بقلبه كان فى الحكم جائزاً ولكنه فى أعظم النقصان ، وإنما جاز فى الحكم لأنه ابتلاهم

---

(١) من الآية ٨٧ من سورة الاسراء .
(٢) من الآية ٥٨ من سورة النور .
(٣) من الله
(٤) إلى العبد
(٥) من الآية ٢١٤ من سورة هود
(٦) الآية ٣١ من سورة النساء
(٧) أى القبلة .

بخلقين عظيمين : ١ — وساوس النفس — ٢ — ووساوس الشيطان . فالنفس توسوس بشهواتها ، والشيطان بكيده وخدعه . فمن كان الغالب على قلبه النفس لم ينج من الوسوسة وهو حديث النفس يحدث القلب ، ويستمع القلب إلى وسوستها ووسوسة شياطينها فعليه المجـاهدة فى رد حديثها والتلهى عن ذلك والإقبال على ما هو فيه . فإذا ترك المجاهدة مع هذين الوسواسين (١) فغير معذور لا يكتب له من صلاته ما سها عنها .

ومنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الرجل ليصلى الصلاة وما يكتب له إلا عشرها » .

حدثنا الفضل بن محمد — حدثنا عبد الله بن شعيب بن الليث بن سعد حدثنى أبى عن جدى ليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن سعيد ابن أبى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن العبد ليصلى الصلاة وما يكتب له عشر صلاته التسع الثمن السبع حتى تكتب صلاته تامة » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأما قوله لا يكتب له من صلاته ما سها عنها فإنه لا يكتب له فضلها . وأما حكمها فمكتوب . فإذا جاهد فرد حديث النفس فهو معذور ، ويكتب إقباله ويكتب له ثواب مجاهدته .

ومن ها هنا قول قتادة فى قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً (٢) » قال هما صفان : صف القتال وصف الصلاة . حدثنا بذلك الجارود عن يونس بن محمد عن شيبان عن قتادة .

---

(١) وسوسة النفس ووسوسة الشياطين .
(٢) الآية ٤ من سورة الصف .

فلما كانت هذه صفة خلقهم مع وساوسهم فتركوا المجاهدة فى رده اختزلهم هذا فى الحكم فسقط الفرض عنهم فى الظاهر .

فأما الفضل الذى يقترن به تكفير السيئات ومحو الخطيئات والترقى فى الدرجات فى علياء المكانات فشأواً مقربا هيهات أنى لهم ذلك .

والصلاة إنما هى تصلية(١) العبد بين يدى ربه تضرعاً وتخشعاً وتذللا واستكانة واستعطافا وملقاً(٢) ورغبا .

فالقلب قائد والأركان تبعه وخدمه ، فما ظنك بمن يقبل إلى باب الملك معتذراً من سوء . أو متعرضاً لنوال معروف بتبعه وخدمه ، فلما قرب من فناء الملك وجه الأتباع والخدم وتولى معرضاً مقبلا على أخس عبد من عبيده فتشاغل به وترك التضرع والتخشع والملق والاستعطاف ، وأمر تبعه أن يعملوا ذلك عنه عند الملك . أليس قد استهان بهذا الأمر غاية الاستهانة وصغره غاية التصغير ؟ فإن حرم النوال والمعروف وأقصى وأعرض عنه الملك وعن حاجاته كان محقوقاً بذلك .

فإذا كان هذا فى هذه الدنيا مقصى(٣) محروماً بتخلفه عن الباب والكون(٤) بين يديه مع تبعه وخدمه — فكيف يكون حال من وقف بين يدى ربه بأركانه وذهب بقلبه ؟ فشيمته كناسات الدنيا وأقذارها .

ومن ها هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه :

« أنه صلى يوماً بأصحابه فترك آية فخفى على القوم ذلك فقال : « ما بال أقوام يتلى عليهم كتاب الله فلا يدرون ما ترك مما تلى ؟ هكذا خرجت عظمة الله من

---

(١) التصلية هى الوقوف والدنو .
(٢) توددا إليه وتلطفا .
(٣) مبعـدا
(٤) الحضور والوقوف

قلوب بنى إسرائيل فشهدت أبدانهم وغابت قلوبهم · لا يقبل الله صلاة امرىء حتى يشهد قلبه منها ما شهد بدنه » .

حدثنا بذلك داود بن حماد القيسى — حدثنا يحيي بن سليم — حدثنا عثمان ابن أبى دهرين رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وحدثنا عبد الجبار عن سفيان عن عثمان بن أبى دهرين بإسناد مثله .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما خلت قلوبهم من عظمة الله صارت هكذا .

وذلك أن القلب إذا غلبت عليه شهوات النفس صار الصدر مظلماً « وهو بيت القلب » وصار القلب محجوباً .

فإذا قام بين يدى الله فانما تصدر الأمور من الصدر فى تلك الظلمة مع حديث النفس ووسواسها ، وإذا خلا الصدر من تلك الشهوات واستنار بنور الله وتجلت عليه العظمة — كان القلب ذا سلطان لايجترىء الوسواس أن يرفع رأسه بل يهرب منه طيرانا وتخمد منه وسوسة نفسه .

ألا ترى أن الرجل يمشى مطمئنا فيستقبله شكله من الناس فلا يهابه ولا يبالى به . فاذا استقبله صاحب سوار من رجال الأمير طار هاربا وترك ذلك الطريق عليه . فكذلك الصدر إذا استنار كان القلب ذا سلطان فمتى يجترىء الوسواس أن يتربع فى صدره فيحدثه ؟ أو متى تتخلل وسوسة نفسه وقد خمدت شهواته للخوف الذى حل به؟

ومما يحقق ذلك :

ما حدثنا به عبد الله بن أبى زياد والتطوانى — حدثنا سيار عن جعفر ابن سليمان عن مالك بن دينار قال :

« قرأت فى التوراة : يا ابن آدم : لاتعجز أن تقوم بين يدىّ فى صلاتك باكيا فإنِّى أنا الله الذى اقتربت بقلبك وبالغيب رأيت نورى » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإذا كان القلب بهذه الصفة فمن أين يجترىء الوسواس أن يدنو منه فيحدثه خارجا عن الصلاة فكيف فى الصلاة ؟ .

حدثنا عبد الله بن أبى زياد ، حدثنا سيار عن جعفر عن مالك قال : قرأت فى بعض الكتب : « إنْ سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحتل فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فمن يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله » .

فهذا قلب قد حيى بربه لما قربه وأدناه فسقاه ماء الحياة فى حياته وفنائه . أمات منه الشهوات ، ففى صدره نور الأنوار فغير مستنكر أن يفرق[1] العدوّ من ظله .

وأما قوله : لا يقبل الله صلاة امرىء : فالقبول إنما يكون إذا أتى بهذه الصفة مقبلا على ربه بقلبه — فذاك الذى يملأ نور صلاته ما بين الخافقين .

وكذلك حدثنا عيسى بن أحمد العسقلانى — حدثنا بشير بن بكر عن سعيد ابن سنان عن أبى الزاهدية عن أبى شجرة عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(ما من مؤمن يتم الوضوء إلى أماكنه ثم يقوم إلى الصلاة فى وقتها فيؤديها إلى الله لم ينقص من وقتها وركوعها وسجودها ومعالمها شيئاً إلا رفعت إلى الله بيضاء مسفرة يستضىء بنورها ما بين الخافقين ليس الثقلين حتى ينتهى بها إلى الرحمن فيؤذن لها بالصلاة لله عن صاحبها فتوضع لصاحبها بين الملائكة فتصلى عنه فيهم إلى يوم القيامة ، ومن قام إلى الصلاة فلم يكمل وضوءها وأخرها عن وقتها واسترق ركوعها وسجودها ومعالمها — رفعت عنه سوداء مظلمة تملأ ظلمة سوادها ما بين الخافقين ليس الثقلين حتى يفضى بها إلى الرحمن فلم يؤذن لها بالصلاة عن صاحبها ثم ترد إليه لا تجاوز شعر رأسه تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى مرتين) .

---

(١) يهرب .

تفسير القبول

قال أبو عبد الله رحمه الله : والقبول هو أن يصلى العبد صلاة تليق بحق الله . فإذا كان العمل ليقاً كان مقبولا .

والقبول على وجهين :

١ — وجه منهما : أن العبد يصلى ويعمل سائر الطاعات وقلبه معلق بالله ، ذاكر لله على الدوام . فأعمال هذا العبد تعرض على الله حتى تقف الأعمال قبالته فينظر إليها ، فاذا نظر إليها قبلها وهذا عمل المقربين .

٢ — والوجه الآخر : أن العبد يعمل الأعمال على العادة والغفلة وينوى بها الطاعة فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاهى[١] عن ذكر الله ، وكذلك حاله فى الصلاة بهذه الصفة . فاذا رفعت إلى الله لا توقف بين يديه ولا وقعت نظرته عليه . ولكن توضع فى الخزائن لتعرض عليه يوم القيامة . فهذا لم يتبين قبوله بعد . فان عرض[٢] عليه يوم القيامة حصلها وميز منها ما كان له وتفضل بقبولها . فهنالك يتبين القبول .

وعمل المقرب فى وقت الفعل يعرض فيقبل .

هذا معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : عندنا أنه لا تقبل صلاة امرىء الآن فى وقت الفعل : لا أنه لا يقبل فى القيامة .

قال أبو عبد الله رحمه الله : والناس فى الصلاة على خمسة أحوال .

١ — فمنهم من يصلى فينتقص من وضوئه ومواقيتها وحدودها بأركانها .

(١) هكذا فى الأصل الصحيح (لاه)
(٢) هكذا فى الأصل الصحيح (عرضت)

٢ — ومنهم من يصلى محافظاً على وضوئه ومواقيتها[١] بأركانها ، وقد ضيع مجاهدة نفسه فى الوسوسة .

٣ — ومنهم من يصلى محافظاً على وضوئه ومواقيتها وحدودها بأركانها ، ومجاهدة نفسه فى شأن حديثها ووسوستها .

٤ — ومنهم من يصلى محافظاً على وضوئه ومواقيتها وحدودها بأركانها مشغولا بقلبه مع الله بحفظ هذه الحدود ومناجاته .

٥ — ومنهم من يصلى محافظاً على وضوئه ومواقيتها ، وأركانها وحدودها ، مشغولا بربه قرير العين به ، محفوظا عليه حدودها .

يحقق ذلك : (أن العبد إذا قام يصلى قال الله تبارك اسمه : ارفعوا الحجب ، فاذا التفت قال : ارخوها) فهذا عندنا التفات القلب إلى شيء سواه — صلاة كانت أو نفساً أو ذنباً بعد أن يلتفت .

فهم خمسة أصناف : فالأول معاقب ، والثانى محاسب ، والثالث مكفر عنه بها ، والرابع مثاب ، والخامس مقرب .

وهذا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(إن الله تعالى جعل قرة عينى فى الصلاة) . فمن قرت عينه فى الصلاة فالقربة قرت عينه بربه لأنه ينال منه براً وعطفاً ، وشفقة .

فمن قرت عينه بالصلاة فهو مثاب ، لأنه قد أحكمها وأدى فرضه ، فقرت عينه بها اليوم وبثوابها غداً .

وأما قول سعد بن معاذ رضى الله عنه : (ما قمت فى صلاة فحدثت نفسى فيها بغيرها) . فهذا يدل على أنه من الصنف الرابع ، وأنه لم يخل من الالتفات إلى الصلاة والإقبال على ربه بصلاته .

(١) هكذا فى الإصل ولعلها : وحدودها بأركانها (مثل ماسبقها) .

وأما المقبلون على ربهم فبقلوبهم فى صلاتهم لا بصلاتهم . فهم المقربون أهل جذبته خاصة ، وهم أمام الصديقين يسيرون إليه . والصديقون ساروا إليه على طريق اليقين فهم مشتغلون بجلاله ومجده وعظمته مصلين وغير مصلين .

والمجذوبون سيرهم إليه على طريق أهل الصفة جذبا وتصفية فهم مشتغلون به فى جلاله وعظمته ومجده مصلين وغير مصلين . فهم من مقام الأنبياء من الأذن ، والصديقون على الأفقية .

وأما قول سعد بن معاذ رضى الله عنه — فقد اختلفت ألفاظ رواته فأما يزيد ابن هارون — فرواه عن محمد بن عمرو وقال : أخبرنى — الماجشون بن أبى سلمة قال : قال سعد بن معاذ رضى الله عنه : « ثلاث أنا فيما سواهن ضعيف :

١ — ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق من الله .

٢ — وما صليت صلاة فألهانى عنها غيرها حتى أنصرف .

٣ — وما تبعت جنازة قط فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة أو مقول لها حتى يفرغ منها .

قال محمد : فحدثت به الزهرى فقال : يرحم الله سعدا — إن كان لمأمونا على ما قال ، وما كنت أرى أن يكون أحد هكذا إلا نبى .

حدثنا بذلك الجارود بن معاذ عن يزيد بن هارون .

وأما محمد بن إسحاق فرواه عن الماجشون قال : قال سعد : « فى ثلاث خصال مع ما رزقنى الله من الخير .

١ — أما واحدة فما سمعت كلاماً قط من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأنى أسمعه من الله تبارك وتعالى

٢ — وما صليت صلاة قط فشغلنى عنها غيرها حتى أفرغ منها .

٣ — وما تبعت جنازة قط فحدثت نفسى بحرف إلا بما هى قائلة أو يقال لها حتى أنصرف .

قال ابن إسحاق : قلت لابن شهاب هل سمعت بهذه الثلاثة التى قالها سعد ؟ فطأطأ رأسه هنيهة ثم قال : رحم الله سعداً فهو المأمون عندنا وعند المسلمين فيما قال وما كنت أظن أن هذه الخصال إلا فى نبى أخذ الله بيده .

وأما المكى فرواه عن موسى بن عبيدة قال : سمعت محمد بن عمرو بن عطاء يقول : قال سعد : ثلاث فى .

١ — ما قمت إلى صلاة فحدثت نفسى فيها بغيرها حتى أقضيها[١] .

٢ — وما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عرفت أنه صدق كما قال.

٣ — وما حضرت ميتاً إلا كان أكثر حديث نفسى ما هو قائل أو مقول له .

حدثنا بذلك أبى رحمه الله عن المكى عن موسى بن عبيدة

وأما مروان الفزارى : فحدثنا عمر بن أبى عمر — حدثنا سليمان بن شرحبيل الدمشقى — حدثنا مروان بن معاوية — حدثنا أبو الدرداء عن خليد العصرى عن الحسن قال : قال[٢] سعد بن معاذ .

١ — ما صليت صلاة إلا ظننت أنى لا أصلى بعدها .

٢ — وما صليت على جنازة قط فكان لى هم غير ما يقال له وما يقول .

---

(١) أى أتمها وأؤديها .

(٢) لكن فى الأصل : قال سعد بن أبى وقاص — وهذا يخالف ما نحن فيه لأن الكلام كله عن حديث سعد بن معاذ .

٣ — وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً إلا عرفت أنه حق .

فأما رواية المكى ، ورواية يزيد بن هارون فقريب بعضها من بعض .

وأما رواية مروان فإنه يقول : كأنه صلاة مودع قد انقطع أمله .

وأما رواية ابن إسحاق فهو أدل على مقامه حيث يقول إنه لم يشغلنى عنها غيرها ، وهذه كلمة أعلى من ذلك يدل على ذلك قوله فى الخصلة الأخرى : وما سمعت كلاماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأنى أسمعه من الله . فبين هذا القول وبين أن يقول : إلا عرفت أنه حق : بون بعيد : صاحب هذه الكلمة قد هتك الحجب وتخطى الرأى وصار بين يديه. به يجول وبه يصول وبه يلوذ وإياه يلاحظ .

فعلى رواية ابن إسحاق يدل على أنه من الصنف الخامس : وهم أهل جذبته وفى قبضته . ألا ترى إلى قول الزهرى « ما كنت أظن أن يكون هذا إلا فى نبى قد أخذ الله بيده » .

وأما قول عمر رضى الله عنه « إنى لأؤمر أمرائى ، وأبعث جيوشى وأنا فى الصلاة .

حدثنا بذلك عبد الوهاب بن فليح المكى — حدثنا مروان الفزارى عن عاصم الأحول عن أبى عثمان النهدى عن عمر .

وما روى أنه قال : « إنى لأحسب جزية البحرين وأنا فى الصلاة » فكان هذا الفعل وأشباه هذا من عمر رضى الله عنه عدل فى الصلاة إذ كان لأمور المسلمين متقلداً ، والنظر عليه فى هذا مفترضاً ، ولم يك عمر رضى الله عنه ممن تشغله هذه الأشياء عن الله والمشغول بأمره معه لا يضره هذا — وإنما يضر ذلك المشغول بأمره عنه .

فالأول على بصيرة ويقين وكشف غطاء فأينما دار فى الأحوال فمع ربه، والثانى

على عمى وغفلة وفى غطاء مشغول بأمره محجوب عن ربه بغطاء هواه .

فإذا أدخل فى صلاته من الفكر ما ليس منها كان ذلك منه حديث نفس ووسوسة . وكيف يتوهم على عمر رضى الله عنه مثل هذا وهو محدث هذه الأمة ؟.

حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء — حدثنا ابن عجلان عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قد كان فى الأمم محدثون فإن يك فى أمتى منهم [١] فعمر بن الخطاب » فالمحدث يعقب الأنبياء يكادون يلحقون بهم قربا ولما .

وكان ابن عباس يقرأ « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث»

حدثنا بذلك أبى رحمه الله — حدثنا الفضل بن وكين عن ابن عيينة عن عمر ابن دينار عن ابن عباس والجارور عن ابن عيانية .

فالمحدث ينظر بنور الله له ثلاث خصال : ١ — الفراسة . ٢ — والإلهام . ٣ — والحديث . وأعلى خصاله الحديث يرد على قلبه طرئا عن الله عن طريق الحديث محروسا بروح الله من السكينة لا من طريق الوحى .

وإن لله على القلوب طرقا متفاوتة بعضها فوق بعض حتى ينتهى إلى أعلى [٢] طريق يستحق به صاحبه غدا الدرجة الوسيلة التى ليس بينها وبين الله أحد نرجو أن يكون ذلك محمد صلى الله عليه وسلم .

يحقق ذلك قول الله تعالى فى تنزيله «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا [٣]» وقوله فيما يحكى عن الرسل « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا [٤] » .

---

(١) هكذا فى الأصل ولعل هنا كلمة « أحد » سقطت من الأصل .
(٢) فى الأصل طريقة ولكن هذا لا يناسب ما بعدها .
(٣) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ١٢ من سورة إبراهيم

فأما هـــذا المحدث فقلبه فى قبضته . فبه يعقل وبه يسمع ويبصر وبه ينطق ويمشى ويبطش .

وكذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . حدثنا بذلك إسماعيل ابن نصر — حدثنا أبو المنذر القطيعى — حدثنا عبد الواحد بن ميمون عن عروة ابن الزبير عن عائشة عن لرسول صلى الله عليه وسلم — عن الله تبارك وتعالى اسمه .

حـدثنا إبراهيم بن المستمر الهزلى البصرى — حدثنا أبو عامر العقدى عن عبد الواحد بن ميمون مولى عروة عن عروة عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ن الله تبارك اسمه أنه قال :

« إذا أحببت عبدى كنت سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ، وفؤاده الذى به يعقل ، ويده لذى بها يبطش .

قال أبو عبد الله رحمه : فهذا شأن المحدثين . وكان عمر رضى الله عنه ممن أومأ[1] إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا . فسواء على مَنْ هذا محله ومنزلته من القربة فكر فى صلاته فى شأنها أو فى أمر أمرائه وجيوشه وحساب الجزية . لأن كل ذلك كان فرضا لازما عليه ، وكانت فكره مع هذه الأشياء مع ربه فبه يفكر وبه يدبر وبه يؤمر وبه يعزل . فليس هذا بمنقصة له بل ذلك مما يزيده فضلا ونبلا إذ كانت الأشياء لا تقدر أن تأخذه من الله . فحال عمر رضى الله عنه فى هذا حال الأقوياء ، وحال سعد رضى الله عنه حال الضعفاء .

فأهل الصلوات الخمس بوضوئها ومواقيتها وحدودها وبإقبال القلوب على خالقهم فيها : هم عندنا أهل العهـــود يدخلون الجنة بغير حساب سباقا ، وهم صنفان : ١ — صنف أقبلوا عليه فاشتغلوا بالصلاة عنه ، ٢ — وصنف أقبلوا عليه فاشتغلوا

(١) أشار

به عن الصلاة ، وهذا أعلى وذاك تابع لهذا ، ٣ — والصنف الثالث أهل مجاهدة . وفى الجهد تكفير السيئات ومحور الخطيئات فيحتاج إلى مهلة حتى تقابل الصلوات بتلك السيئات فتمحى وتمضى إلى الجنة على أثر الصنفين السابقين . وما سوى ذلك أهل تضييع وتفريط فهم فى المشيئة موقوفون بين عذاب ورحمة .

ومما يحقق ذلك ما حدثنا به عيسى بن أحمد العسقلانى . حدثنا بشير بكر القيسى [1] سعيد بن سنان عن أبى الزاهدية عن أبى شجرة عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « حدثنا يعقوب بن شيبة — حدثنا محاضر بن مودع — حدثنا الأحوص بن حكيم حدثنى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال .

«من توضأ فأبلغ الوضوء ثم قام إلى الصلاة فأتم ركوعها ، وسجودها والقراءة فيها : قالت حفظك الله كما حفظتنى ثم صعد بها إلى السماء ولها ضوء ونور ففتحت أبواب السماء حتى تنتهى إلى الله فتشفع لصاحبها . وإذا لم يتم ركوعها وسجودها والقراءة فيها ولا وضوءها : قالت : ضيعك الله كما ضيعتنى ثم صعد بها إلى السماء وعليها ظلمة فغلقت أبواب السماء [2] دونه . ثم لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها .

حدثنا صالح بن عبد الله — حدثنا عبد الرحمن بن زيد العمى عن أبيه عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة ثلاثة أثلاث : ١ — ثلث وضوء ، ٢ — وثلث ركوع وسجود . ٣ — وثلث قراءة . فمن أتى بهن تامة قبلن منه وما سواهن من العمل ، ومن نقص واحدة منهن طويت صلاته طى الثوب الخلق ثم ضرب بها وجه صاحبها فلا يرفع له عمل بعد ذلك حتى يتوب » .

(١) هكذا فى الأصل ولعله أسقط (عن) والصحيح عن سعيد بن سنان

(٢) هكذا فى الأصل والصحيح دونها لتناسب ما بعدها .

فقد تبين شأن الصنفين فى حديث عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرط تمام الوضوء إلى أماكنه وشرط الوقت وشرط أنه لم ينقص من وقتها وركوعها وسجودها ومعالمها شيئا . فأما أماكن الوضوء فبينة ، وكذلك الوقت له أول وآخر . والمصلى من أوله محمود ، والمصلى فى آخره غير مذموم . والفضل البارز للاول . والركوع والسجود حدودهما معلومة : وهو أن يفصل بين كل حال من الركوع والسجود بالإستواء ، وأن يطمئن كل عضو منه فى مكانه فيكون فصلا بين الركوع والسجود وفصلا بين السجدتين .

وأما المعالم فلهاذات العبد فى تغاير هذه الأحوال . فإنه لما أمر بالانتصاب كان ذاك معلما لما يراد منه ، ولما أمر بالركوع كان ذاك معلما لما يراد منه ، ولما أمر بالجلوس كان [1] معلما لما يراد منه . فإذا لم ينتقص من هذه المعالم شيئا وأحضر إرادته فى كل حال ينتقل منه فى إتمام الركوع والسجود بالأركان مع حفظ المواقيت ومع إبلاغ الوضوء إلى أماكنه فتلك صلاة السابقين المقربين وهى التى تفتح لها أبواب السماء ويفضى بها إلى الرحمن ويصلى على صاحبها فى الملأ الأعلى إلى يوم القيامة . هذا لمن اشتغل بالمعالم فكيف لمن اشتغل برب المعالم عن المعالم ! ما ظنك بتلك الصلاة ؟ وكم ترى تضاعف تلك الصلاة إلى يوم القيامة ؟

ومن ها هنا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أنه خرج ذات يوم فنظر إلى جبل أحد فقال : إن الرجل من أمتى ليبلغ الحرف من تسبيحه ما يزن هذا الجبل » .

حدثنا بذلك المهدى بن عامر — حدثنا الحسين بن حازم — عن منصور عن أبى حاجب عن زيد بن وهب قال :

(١) هكذا فى الأصل ولعله أسقط كلمة (ذاك) كان ذاك معلما .

شهدت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل إلى ابن مسعود وعنده أبو موسى الأشعرى رضى الله عنهما . فقال : يا ابن أم عبد : هل سمعت ما حدثنا به عبد الله ابن قيس ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « ونظر ذات يوم إلى أحد » هذا جبل يحبنا ونحبه وما أحد من خلق الله يعلم وزنه ، ورب رجل يعمل بطاعة الله فلعل الحرف الواحد من تسبيحه وتحميدة وبره أثقل من أحد ثم على حسب ذلك تفاضل عمله » فقال ابن مسعود رضى الله عنه : وما أنكرت من هذا يا أمير المؤمنين إن من المؤمنين من يكون عمله يوماً واحدا أثقل من السموات والأرض قال وكيف ذاك يا ابن أم عبد؟ قال إن الله جل ثناؤه قسم الأشياء بين عباده على ما أحب أن يقسم بينهم ، ولما خلق العقل أقسم بعزته أنه أحب خلقه إليه وأعزهم عليه وأفضلهم عنده . وأرجح عباده أحسنهم عقلا ، وأحسنهم عقلا من كانت فيه ثلاث خصال :

١ — صدق الورع .

٢ — وصدق اليقين .

٣ — وصدق الحرص على البر والتقوى » (انتهى كلام ابن مسعود) . فبكى عمر حتى تشنج منه .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإنما ثقل وزن هذه الأعمال لا باشتغال الأركان بالأعمال ولكن باشتغال القلوب بأعمال الأركان كيف تعملها لولى الأعمال فحقيق أن يكون الحرف الواحد من تسبيحه يعدل أحداً .

فالطبقة الأولى اشتغلت القلوب منهم بالأعمال ولهوا عما سواها .

والطبقة الثانية اشتغلت القلوب منهم برب الأعمال عما سواه فهم سادة الخلق وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله جعل قرة عينى فى الصلاة » فلم يقل بالصلاة وإنما قال « فى الصلاة » .

فالأعمال فى الخزائن ، والقصد فى الأعمال والنيات والإرادات بين يدى الله . فكلٌّ إنما يصل قصده وإرادته ونيته إلى الله . على حسب قوة قلبه . كالرماة كل منهم إنما رميته على قدر ساعده وصنعه قوسه وصلابة سهمه، فكم من سهم يرميه صاحبه فيسقط فى الطريق . فإن وصل فبعد مدة وإن استقبله شىء لم يجد منفذا فتراه يقهر متراجعاً . ورب سهم قد اشتد[1] ساعد صاحبه وله صلابة خرج من قوس منيع فلا يأتى على شىء إلا نفذ صخرا كان أو حديدا حتى ينتهى منتهاه .

فكذلك القلوب على قدر اليقين وفضل الإيمان الذى فيه بمقدار إرادته ونيته إلى الله . فإن هناك حجبا[2] تحتاج إلى نور نافذ حتى يخرق تلك الحجب ، وبين الأنوار تفاوت . فانظركم بين نور العقل ونور القربة ، وكم بين نور القربة وبين نور جلاله ، وكم بين نور جلاله وبين نور وجهه الكريم .

فالمحتظى من أى نور احتظى : فقربه على قدر ذلك .

ومن ها هنا ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال له أصحابه .. إنا لنجد لقراءتك لذة مانجدها لغيرك » .

حدثنا بذلك الفضل بن محمد عن الوليد بن مسلم — حدثنى محمد ابن مهاجر عن عمير بن هانىء قال : قالوا يارسول الله : إنا إذا سمعنا القرآن منك نجد له حلاوة ولذاذة لانجدها إذاقرأناه « قال إنكم تقرءونه لظهر[3] وأنا أقرأه[4] لبطن . قالوا كيف ذلك يارسول الله ؟ قال أقف عليه وأتدبره » .

(١) فى الأصل اشتد ساعده .
(٢) فى الأصل حجب
(٣) أى من الظاهر بلا تعمق ولا تدبر فى معانيه .
(٤) أى مع فهم وتدبر لمعانيه ومقاصده .

« أهل التلاوة »

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأهل التلاوة فيها على ثلاث منازل :

١ — فمنهم من إذا تلى تلذذ بالوعد والوعيد — وهو أدناهم .

٢ — ومنهم من إذا تلى تلذذ بمخاطبة مولاه — وهو أعلاهم .

٣ — والذى يقرأه لبطن هو الذى إذا تلى صارت تلك الأشياء المتلوة على المعاينة له فاستنار إيمانه بتلك الأشياء . فمن سمع منه هيجه إيمانه الذى فى قلبه فأوجده[1] حلاوة ولذاذة لأنه إيمان برب واحد . وإن كان فى الأنوار تفاضل . ألا ترى كيف وصفهم الله فقال « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا[2] » فكانوا فى الأصل مؤمنين بالجملة ولكن لما تليت عليهم الآيات استنارت قلوبهم بالنور فصار ما فى الآيات معاينة بتلك الصفات التى وصفنا بمنزلة جمرة تتوقد فى ذاتها فإذا نفخ فيها تلظت وتلهبت، فكلما زيدت نفخاً ازدادت ضوءا وتسعرا واشتدت بالتوقد فعملت النفخة على أجمار أخر سواها ليس لها توقد وقد علا عليها الرماد فطيرت عنها الرماد وتسعرت على قدرها . كلاً على قدر ماوصلت إليه النفخة . فبالضوء الذى أشرق صارت: وصارت تلك الصفات التى فى الآية لهم كالمعاينة . وبالتسعر احترقت الأكباد فهطلت العيون وجادت بدموعها ساحة .

ثم رجعنا إلى ذكر صلاة أهل العهود فقلنا : إن أهل العهود وجدناهم ثلاثة أصناف :

١ — فصنف سابق مقرب يشتغل بربه فى صلاته :

٢ — وصنف سابق مشتغل فى صلاته مع ربه .

٣ — وصنف ثالث مجاهد وسواس نفسه وعدوه . فهؤلاء أهل العهود .

(١) هكذا فى الأصل ولعلها (أوجد له)
(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال .

وأما الصنفان الباقيان :

٤ — فصنف مضيع للمجاهدة عامة صلاته وسوسة[١] ولهو ولعب إلا أنه يخفض ويرفع كالبهيمة .

٥ — وصنف مضيع لوضوئه[٢] ومواقيتها وحدودها ومجاهدة عدوه فهم فى المشيئة موقوفون عند ربهم بين عذاب ورحمة .

فتحير ناس من الناس فى قول سعد رضى الله عنه : ماقمت فى صلاة فحدثت نفسى فيها بغيرها » وقالوا كيف تنقطع لوسوسة عن القلوب حتى لا يحدث نفسه بشىء : حتى دعتهم الحيرة إلى رفع ذلك بالإنـكار .

فالمعذور فى هذا البـاب عندما أدركته الحيرة : من قال مثل ما قال الحسن حيث بلغه ذلك عن عامر بن عبد قيس فقال : ما اصطنع الله ذلك عندنا ، ومن قال مثل ما قال الزهرى : يرحم الله سعداً إن كان لمأمونا على هذا ما ظننت أن يكون هذا إلا فى نبىّ .

فهذا قول أهل الروية والإنصاف ومن يراقب الله لما تحيروا ردوا العلم إلى الله وانقادوا للحق .

وأما من كان سخيف الرأى جاهلاً بهذه المراتب من الدين — على قلبه وسخ الذنوب ودرن العيوب ودنس العزة بالله وظلمة حب الدنيا وكدورة الأخلاق وكيد الهوى وشأو النفس وبطر الحياة وشره الشهوات وزهد الروح : فمتى يفهم هذا من أين يطلع مطلعه وإن كان ينتزح له الواصف ؟ هيهات هيهات يحتاج إلى قطع هذه العقاب[٣] التى وصفنا . فإن كل واحدة فيها عقبة كؤود ذروتها شاخة

(١) فى الأصل بالنصب : لهوا ولعبا ولامبرر لذلك .
(٢) فى الأصل (ومواقيته وحدوده) ولا يتمشى مع الصلاة التى لفظها مؤنث .
(٣) هكذا فى الأصل والصحيح « العقبات »

لا سبيل إلى رؤية ما ذكرنا دون قطعها[١] ثم يقطع بعد ذلك هواه الذى كان به غذاؤه وعليه طبع — حتى يتصل بقلبه إلى باب الماجد الوهاب فيهب له الأنوار : يقطع بها إلى مجـد العلى ومواهب الـكريم الأعلى ويترقى بقلبه إلى دنوه الأدنى فيحتظى منه حظه الأوفى فيحل بمراتب لأهل القرب فعندها تـكون صلاته هكذا، وعندها يفهم كلام الأولياء ، ويقفو آثار الأنبياء ، وينال غداً وسائل الدرجات والحياة من الله العلىّ الأعلى .

ولـكنا نحتال فى تفهيمه من طرق مثله فنحتج لإقامة هذا القول من طريق شواهد الدنيا ودلائل المحن والبلوى التى جاءت فى إثباتها تترى[٢] .

فأما شواهد الدنيا : فهو أنك ترى الرجـل مطمئناً بثبات القلب ساكن الأركان . فإذا عاين صاحب سواد أرعب من سلطانه ودخله من الرعب ماغير لونه ورجف قلبه واسترخت قدماه وذهبت قواه . فقد كان يحدث نفسه فى حال سكون القلب وطمأنينة النفس تتردد فى صدره وساوس الدنيا وعجائبها وتطرد أنواع الفكر فى ذلك الجو منه . فلما عاين هذا السلطان طار قلبه فزعا وصارت تلك الوساوس كالهباء المنثور ويقلق قلبه بذلك السلطان الذى بدا لناظريه . فخلا الصدر من جميع ذلك لما تلاشت .

فإذا كان هذا موجوداً فى أحوال الدنيا — فما ظنك بمن أشرقت الأنوار فى صدره من قلبه فاطلع[٣] على الملـكوت بقلبه ، وتراءى على قلبه سلطان الملك الأعلى وبدا لناظرى قلبه جلاله وعظمته فصار يعبده كأنه يراه : كيف تـكون حالته ؟ .

ألا ترى إلى قول حارثة حيث قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت ؟ قال مؤمناً حقاً . قال ماحقيقة إيمانك ؟ قال كأنى أنظر إلى عرش ربى

(١) فى الأصل دون قطعتين ولا معنى له على هذا .
(٢) تترى تتتابع متزايدة .
(٣) سقطت (على) من الأصل

بارزاً ، وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها ـ قال عرفت فالزم : هذا عبد نوّر الله الإيمان فى قلبه » .

حدثنا بذلك عبد الجبار — حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت البنانى عن أنس — وحدثنا أبى — حدثنا محمد بن خنيس المكى — حدثنا عبد العزيز ابن أبى داوذ رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أنه قال : كأنى أنظر إلى ربى فوق عرشه » فهذه كلمة أعلى وأجل من تلك التى رواها يوسف بن عطية . فهذه شواهد الدنيا .

وأما دلائل المحن والبلوى .

فإذا انكسف[1] الشمس والقمر ، وأصابت أهل الدنيا رجفة انخلعت القلوب فتعلقت بالآية التى ظهرت وخلت فى ذلك الوقت عن وساوس الدنيا ووساوس النفس . فإذا وجد الصدر والقلب فدخلوا فى هاتين الحالتين عن وساوس النفس ودنياها فمابالهيدفع[2] إذا قيل له إن المصلى يبلغ فى منزلته من منازل القلوب أن يخلو عن جميع وساوس النفس دنيا وآخرة ، ومن كان يستعمل القياس[3] فى الدين حقيقا أن يدرك هذا بالقياس إن لم يرزق من هذا حظاً . فيقول على ما تعاين من أنه يحل بأهل الدنيا من سلطان الدنيا مايذهل قلوبهم وتخلوا صدورهم من الوسوسة لهول ما ركبهم مما عاينوا . فعلى هذا القياس غير مدفوع أن يكون من يتراءى له على قلبه جلال الله وعظمته وسلطانه — أن يطير عنه ركن دنياه وآخرته جميعا .

ومما يحقق ماذكرنا : أنه جاءنا عنه تبارك اسمه وتعالى : حدثنا به أبىّ — حدثنا الحمانى — حدثنا صفوان بن أبى الصهباء عن بكير بن عتيق — عن سالم بن عبدالله

(١) على سبيل التغليب لأن القمر لا ينكسف بل ينخسف
(٢) ينكر ويدهش .
(٣) فى الأصل بزيادة (والآذان) ولا معنى لها .

عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« يقول الله عز اسمه : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

حدثنا صالح بن عبد الله ـ حدثنا الفرج بن فضالة عن شموذ بن خالد ابن معدان قال : قال داود النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تبارك وتعالى « لأعطين المشتغلين بذكرى عن مسألتى أفضل ما أعطى السائلين » .

قال أبو عبد الله رحمه الله فلينظر هذا الذى تخفى عليه هذه الأنباء هل يعقل أى ذكر هذا الذى يستوجب به أفضل ما يعطى السائلون ؟ هذا ذكر المهتدين الذين إذا ذكروا اهتدوا .

حدثنا بشأنهم حفص بن عمرو قال : حدثنا محمد بن بشهر العبدى . حدثنا عمر بن راشد اليمانى ـ عن يحيي بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« سيروا على نسق المفردين . قالوا يارسول الله : من المفردون ؟ قال الذين اهتدوا فى ذكره ـ يأتون يوم القيامة خفافا يضع الذكر عنهم أثقالهم » .

حدثنا صالح بن محمد ـ حدثنا يحيي بن واضح عن موسى بن عبيدة عن أبى عبدالله القرظى عن معاذ بن جبل، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« السابقون الذين يتهترون[1] بذكر الله . فإنما سموا مفردين لأن ذكر فردانية الملك الأعلى انفرد على قلوبهم فاهتدوا » والمهتدى الذى قد أفند[2] عقله . ومنه سمى التهاتر . وإنما صار مهترا لأن العقل نور فإذا ترق إلى الملكوت فوصل

(١) هم الذين يولعون بالشىء ولا يبالون بما فعل . وهم هنا المولعون بذكر الله .
(٢) أفند : أى — خطأه وعجزه وكذبه .

إلى محل القربة خمد نوره لنور القربة المشرق على قلبه بجلاله وبهائه وعظمته فذهل العقل عن أن يعمل هناك شيئاً فعجز عن المسألة فذاك ذكر الذكر وهو الذكر الصافى . فمن عقل هذا كيف ينكر أم كيف يدفع ذاك ؟ أم كيف يتعاظم ما قيل أنه كائن انقطاع الوسوسة فى الصلاة عن عصاته دون الأنبياء أولئك السابقون الأولياء المقربون الأصفياء . وقيل للحسن : إن عامر بن عبد قيس يقول: لأن تختلف الخناجر فى جنبى أحب إلىّ من أن أجد ذاك فى صلاتى « يعنى الوسوسة » فقال الحسن ما اصطنع الله ذلك عندنا ، فهذا جواب من اتقى الله وخضع للحق لم يرد ولم يدفع ولم يحمله الحسد على الاكفهرار فى وجه الحق ، بل اعترف به وأخبر أنه مما يصطنع عند غيره [(١)] فهذا جواب ماذكرنا من شواهد الدنيا ودلائل المحن والبلوى .

وأما الأخبار التى جاءت فيما ذكرناه بديا من حديث يحيى بن سليم الطائفى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل فشهدت أبدانهم وغابت قلوبهم » . فأخبر من أين أوتى القوم . يعلمك أن الصدر إذا خلا من الخوف والخشية صار مزرعة للشياطين يكربه [(٢)] ويشد قره [(٣)] ويبذر فيه بذره . فلا يأتى عليه كبير مدة حتى يصير مشاكة [(٤)] لا يصلح إلا لإشعال النيران فيه .

ومن ذلك ماقال مالك بن دينار « إن القلب إذا لم يسكنه خوف خرب كما أن البيت إذا لم يسكنه أحد خرب » . وتجد لما قال مثالا عيانا : أن البلدة إذا خلت عن السلطان المرعب لقلوبهم هاجت بأهلها فتن [(٥)] وبلايا .

---

(١) فى الأصل (عند عبيده) .
(٢) يكربه — يغمه ويصيبه بالحزن والكرب .
(٣) يشد قره — أى يصيبه الخوف وشدة اليأس .
(٤) المشاكة — هى مزرعة الشوك .
(٥) فى الأصل بالنصب (فتنا وبلايا) .

وأما الأخبار التى جاءت : ما حدثنا به أبى — حدثنا الفضل بن وكين — حدثنا جعفر بن ترقان عن الزهرى عن حمدان مولى عثمان بن عفان عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، قال :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ثم قال : من توضأ وضوئى هذا ثم قام إلى المسجد فركع ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشىء : غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

حدثنا عبيد بن أسباط بن محمد — حدثنا أبى — حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن زيد بن خالد الجهنى وأبى هريرة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا سهو فيهما غفر الله له » .

حدثنا علقمة بن عمرو التيمى — حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق عن عبد الله بن عطاء البجلى عن عقبة بن عامر ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من توضأ وضوءه ثم صلى ركعتين مقبلا فيهما بقلبه لا يشغله شىء خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

أبوه قال : حدثنا محمد بن الحسن — حدثنا عبد الله بن المبارك — حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن سلمة بن أشيم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من صلى صلاة لا يذكر فيها شيئاً من الدنيا ثم سأل الله شيئاً أعطاه إياه » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فهذه ندبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلق إلى مثل هذه الصلاة وإلى صفة القلوب فيها ونفى الاشتغال عنها . فلو كانت لا تطاق بهذه الصفة لكان الدعاء إليها هزواً ولعباً . ومن ها هنا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجنبون تطويل الصلاة مبادرة الوسواس .

حدثنا الحسن بن عمر بن شقيق البصرى — حدثنا عبد الوارث بن سعيد عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز الظهر ويكملها » فإنما خص صلاة الظهر من بين الصلوات فيما يرى لأن القراءة فيها سر . فإذا كانت سراً كانت الوسوسة لمن خلفه أقدر على فعله .

حدثنا صالح بن عبد الله — حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخف الناس صلاة فى تمام » .

حدثنا يحيى بن حبيب بن عدى — حدثنا بشير بن المفضل عن عوف عن أبى رجاء العطاردى قال : رأيت الزبير بن العوام رضى الله عنه بالبصرة وأتاه رجل فقال ما شأنكم يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراكم أخف الناس صلاة ؟ قال : إنا نبادر الوسواس .

حدثنا فضالة بن الفضل الكوفى — حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن أبى ذر قال : صلى عمار بن ياسر رضى الله عنه صلاة أوجز فيها ، فقيل له : فقال إنى بادرت الوسواس .

حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى — حدثنا أبو حميد الطائى عن مخلد ابن خليفة قال : صلى بنا عدى بن حاتم فأوجز فى تمام فقال هكذا كان يصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن صلى فليوجز فى تمام فإن فيكم العليل والشيخ الكبير وذا الحاجة .

حدثنا العلاء بن سلمة الدواس — حدثنا على بن عاصم — حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خيثم عن عثمان بن خيثم عن أبيه عن أبى أيوب قال : جاء رجل فقال يارسول الله : علمنى وأوجز . قال : إذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعتذر منه ، واجمع اليأس مما فى أيدى الناس .

حدثنا يحيى بن أحمد الطائى — حدثنا شريك عن أبى إسحاق عن أبى عمار

عن عمر قال : « الصلاة كالكيل فمن أوفى أوفى له » .

حدثنا أبو حسين الرفاعى — حدثنا ابن فضيل — حدثنا أبو نصر عن سالم ابن أبى الجعد عن سلمان قال : « الصلاة مكيال وميزان فمن وَفَّى وُفِّىَ له — ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله فى المطففين » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإنما أوجزوا وخففوا لأنهم قدروا على نفى الوسواس بالنور الذى شرح الله به صدورهم ، ولو لم يكن كذلك وكانت هناك وسوسة لطولوا . فلم يكونوا يجمعوا أمرين اثنين : وسوسه وخفة . يدلك على[1] إيجازهم على أنهم كانوا يصلون والوسوسة منفية . ألا ترى أنه يقول : بادرت الوسواس . فلو كان حاضراً لم يكن هناك بدار[2] ، فهذا كله توكيد قول سعد بن معاذ رضى الله عنه .

وأما عمر رضى الله عنه : فهو أقواهم فى ذلك وليس ذلك منه حديث نفس ولا وسوسة . إنما ذاك من حديث القلب مع الله — وإن كان من أمور الدنيا — لأن أمور الدنيا هى أمور الآخرة .

فمن كانت نفسه شهوانية محجوباً عقله عن الله : كان ذلك الحديث منه حديث النفس — دنياوياً شهوانياً — ومن كانت نفسه ميتة عن الشهوات قد حيى قلبه لله — كان ذلك الحديث منه حديث القلب مع ربه — ملكوتياً ربانياً — فكان حديث عمر رضى الله عنه فى صلاته بمحاسبة جزية البحرين وتأمير الأمراء وعزلهم وبعثه الجيوش والنظر فيما تقلده — حديثاً[3] ملكوتياً إلهامياً محدثياً — لا حديثاً طبيعاً شهوانياً وسواسياً فيكون منقصة .

---

(١) هنا كلمة (على) زائدة فى الأصل .
(٢) فى الأصل بدارا بالنصب .
(٣) لكن فى الأصل — حديث ملكوتى . . . . بالرفع

فبهذا برز عمر على سعد بن معاذ وجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنهم . وعمر هو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من بينهم فقال :

« قد كان فى الأمم محدثون فان يكن فى أمتى أحد منهم فعمر بن الخطاب » .

حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء — حدثنا سفيان عن ابن عجلان عن سعد ابن إبراهيم عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن يعقل هذا عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما إلا من فتح الله له طريق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . كما قال بكر بن عبد الله المزنى .

حدثنا به المؤمل بن هشام البصرى وقتيبة بن سعيد قال حدثنا إسماعيل ابن إبراهيم عن غالب القطان عن بكر بن عبد الله قال . « لم يفضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صوم ولا صلاة وإنما فضلهم بشىء كان فى قلبه » .

أبوه قال : حدثنا الحسن بن سوار عن مبارك عن الحسن قال : « إنما غلبهم عمر رضى الله عنه بالصبر واليقين لا بالصوم والصلاة » .

أبوه قال : حدثنا محمد بن الحسن : حدثنا عبد الله عن الأوزاعى عن حسان ابن عطية قال : « إن الرجلين يكونان فى الصلاة الواحدة وإن بينهما من الفضل لكما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله، والآخر ساهى[1] غافل » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإذا أقبلت على شىء من خلقه وبينك وبينه حجاب لم يكن إقبالا — فما ظنك بالخالق إذا أقبلت عليه بقلبك وأنت فى حجب

(١) — هكذا فى الأصل الصحيح « ساه » .

الشهوات ووسواس النفس شغوفا بها ؟ فكيف يكون ذاك إقبالا وقد ألهتك الوساوس والشهوات . كما أنك ترى فى دنياك أن من أقبل على شىء فأعجب به ألهاه ذلك عما سواه .

فهذا ما جاءنا من الأخبار وتلك الشواهد والدلائل التى ذكرناها بديا . فكيف يمكن دفع هذا إلا مكابر قد استحوذ على قلبه شياطين الجن، وعلى عينه شياطين الإنس فشمخ[1] بأنفه عنان المجرة عن هذا المقام ، وبعد قلبه عن الله وبأسه عن درك هذه المكرمة لغالب ما يرى من الرين على قلبه ، وبعد من تناوش هذا الحظ : « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون » حال بينهم وبين ما وصفنا استعمال شهوات النفوس فيما أطلق لهم وفيما لا يطلق فيخرجون من الدنيا وهم من هذا الأمر الذى وصفنا فى شك مريب .

فإن قال قائل : فإنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوماً : من صلى ركعتين فله عبد أو فرس » . . . . . (بياض فى الأصل)[2]

حدثنا بذلك إبراهيم بن سعد الجوهرى — حدثنا أبو عامر العقدى — حدثتنا زمعة عن سلمة بن دهرام عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشىء فله عبد أو فرس . فقام رجل فصلى ركعتين . فلما جلس أتاه الشيطان فقال أيهما تأخذ : العبد أم الفرس ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فاحتج هذا الضعيف معارضاً لما جئنا به بديا : فقال هذا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . هل قدر على هذا ؟

(١) — شمخ بأنفه — تكبر
(٢) وجد مكان هذا فراغ فى أصل المخطوط .

فكيف بمن دونه ؟ فقيل له : لو أنه لم يزل فى كل قرن من لدن زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقون ومقتصدون ، وظالمون . فهم ثلاثة أصناف ذكرهم الله فى تنزيله : ١ — ظالم لنفسه . ٢ — ومقتصد . ٣ — وسابق .

فهل جاءك فى هذا الحديث أن هذا الرجل كان من السابقين أو من المقتصدين ؟ فإن المقتصد لا يمنع من الوسوسة ، لأن قلبه بداء الوسوسة مشغول وعقله بها مشغوف ، والسابق قد ترقى عن هذه المنزلة إلى درجات العلى فى ملكوت العرش قد استمسك قلبه عن أن يلتفت إلى مثل هذا ، فالأشياء لا تقدر أن تأخذه ولا تشغل قلبه عن الله . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما وضع لهم هذا ربما أراد أن يعظهم بهذا ويؤدبهم ويعلمهم أن سبب هذه الوسوسة فى الصلاة دنياهم التى استحلاها منهم من استحلاها وغلب على قلبه حبها فأذهب شعبة من عقله . وإلا فهل رأيت أحداً أخذ ثواباً من الدنيا على صلاة يصليها ؟ فإنما كانت هذه محنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم وتنبيهاً ليعلموا سبب الفتنة فى صلاتهم . وإنما قام ذلك الرجل يصلى على ذكر من نوال عرض الدنيا فاجتهد فيها حتى إذا أحس بأجره رفع باله — فافترص الشيطان فرصة لما رأى أنه رفع باله وأقبل على عرض الدنيا . فعندها أمكنه حديثه . ألا ترى أنه أمكنه إلى وقت السلام . والخروج منها نفى الوسوسة ، ولما حان وقت التسليم استرخى ومال إلى العرض فعندها أصاب الشيطان فرصته . فلو لم يكن هذا الذكر بين يديه لأتمها على الصفة التى سئل ، ولم يجد الشيطان سبيلا إلى محادثته .

فلم يجىء فى هذا الحديث أن الرجل حدثه الشيطان أو أصابه بوسوسة إنما ذكر مجىء الشيطان قط . فهذا يعلمك سبب مجىء الوسوسة . أن من ابتلى بذلك فإنما ابتلى باستيلاء محبة الدنيا على قلبه . ولولا ذلك أنه أراد أن يعلمهم من أين

تجيئهم الوسوسة ما كان ليرشى على الصلاة . هل سمعت أن أحدا قال : « صل كذا ولك كذا » ؟ فإنه أراد صلى الله عليه وسلم أن يقدم بين يدى ذلك المصلى نوالا لينظر كيف يعمل ذلك النوال على قلبه . فيكون فى ذلك المصلى عبرة ، ولمن كان بحضرته . فيعلموا أن الوسوسة إنما تحضر وتحدث صاحبها بشهوات نفسه وبما يجل قدره عنده فإذا ماتت شهوات نفسه بما حل فى قلبه من عظمة الله تعالى فانخشع القلب وسكنت النفس وهدأت الأركان والجوارح ، وتعلق الفؤاد بمناجاة مالك الملوك . فأنى يبقى للوسواس هناك حديث ؟ ومتى يقدر أن يدنو من ذلك النور الذى قد أشرق فى صدره حتى يتمكن من محادثته ؟ هيهات قد فاته ذلك منه وكيف إلى محادثته بشىء قد انقطعت شهوته عنه ؟ .

وهذا عامر بن قيس يقول . « ما أبالى لقيت امرأة أو حائطاً » ، يذكر موت شهواته ثم يقول « إنى لأستحى أن أخاف شيئاً سواه » ثم يقول . « ما وقع بصرى على شىء إلا رأيت الله أقرب منه » .

فمن كانت هذه حالته وهذه صفة قلبه كيف يوسوس عدوه إليه فى صلاته ؟ وبأى شىء يوسوس ؟

وأما قوله : إنى لأستحيي أن أخاف . . . فلم يقل إنى لا أخاف سواه ولكن قال أستحيي أن أخاف .

وأما قوله : رأيت الله أقرب منه : فهذه رؤية القلب عظمة وجلالا . ومما يحقق ذلك ما حدثنا به إسماعيل بن نصر وقتيبة بن سعيد قالا :

حدثنا محمد بن خنيس المكى عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر : أنه لقيه عروة بن الزبير فى الطواف فخطب إليه ابنته فسكت عنه ولم يجبه بشىء . فلما رجع إلى المدينة : أتى ابن عمر فقال له ابن عمر : ما منعنى أن أجيبك إلا أننا كنا فى طوافنا نتراءى الله بين أعيننا . وقال فى رواية أخرى : « نتخايل

الله بين أعيننا ، والمعنى قريب وما أرى المنكر لهذه الأشياء إلا رجل خفى عليه شأن القلوب وهو خلو من حدود أهل الانتباه — رجل شهوانى سكران من محبته الدنيا أو رجل يتغنى نائم ثقيل النوم عن أمر الملكوت .

فأما محيى القلب بالله يقظان فهذا نصب عينيه .

وأما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخميصة (أى لبسها) :

حدثنا بذلك يعقوب بن إبراهيم الدورقى وعبد الجبار بن العلاء قالا :

حدثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن عائشة :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى خميصة[1] لها أعلام . فلما قضى صلاته قال : شغلتنى أعلامها إذهبوا بها إلى أبى جهم — رجل من قريش — وائتونى بأنبجانية »[2] .

أبوه قال — حدثنا أبى — حدثنا عبد الله بن نافع ومطرف عن مالك ابن أنس عن علقمة بن أبى علقمة عن أمه عن عائشة قالت « أهدى أبو جهم بن حذيفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم — خميصة يمانية لها أعلام[3] فشهد الصلاة فيها فلما انصرف قال : ردوا هذه الخميصة إلى أبى جهم فإنى نظرت إلى علمها فى الصلاة فكاد يفتننى » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : والخميصة ثوب من صوف أسود لين قلما يكون إلا معلماً ، ويكون مربعاً ، والبركان مثله ولكنه مستدير ، والانبجانية كساء غليظ وقى — يتخذ من أوبار الإبل — ينسج بناحية الشام — بموضع يقال له « مبنج » وإنما هو منبجانى » فأسقط الميم فقيل : « أنبجانى » وجرت على الأفواه

(١) سوف يأتى شرحها وتفسيرها .
(٢) سوف يأتى شرحها وتفسيرها
(٣) خطوط

هكذا . وكذلك « بركانى » وإنما هو « برنكانى » وهو موضع بفارس يقال له « برنكان » يعمل هذا هناك فنسب إليه كما قيل : « عبقرى » عملت « بعبقر » قرية بناحية الشام وهى البسط الموشاة .

وأما قوله : « شغلتنى أعلامها » فليس فى هذا القول بيان أن هذا شغل القلب أو شغل العين . لأنه يذكر فى حديث مالك بن أنس عن علقمة أنه قال « نظرت إلى علمها فكاد يفتننى » فكشف عن معناه أن ذلك كان شغل العين . ولو كان شغل القلب مع النظر بالعين كانت فتنة . فلما قال « كاد أن يفتننى » ومعنى كاد « قرب » فأخبر أنه قرب من الفتنة ولم يفتن فدل هذا على أن معنى قوله « شغلتنى أعلامها » شغل العين لاشغل القلب . ومشغول القلب . بالله تعالى تشغل الأشياء عينه فلا يصل إلى قلبه من الأشياء شهوة نفسية وحلاوة دنياوية . فإن وصل عده نقصاً واستغفر .

ومثله ماجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه مر فى أصحابه يوماً . . . حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر بن سابور — حدثنى عثمان بن أبى عاتكة — عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة قال :

« صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم الظهر . ثم هبط إلى البقيع فتبعه أهل المسجد وهو يمشى بين أيديهم حتى هبط إلى أدنى البقيع وبيده جريدة من نخل فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للناس : مروا مروا حتى كان كلهم بين يديه . فقال رجل من الناس . كنا خلفك ـ فأمرتنا فتقدمنا بين يديك فيما فعلت ذاك بنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع فى نفسى شىء من الكبر » ثم مشى هنيهة فقام يستمع فقال تسمعون ما أسمع ؟ قالوا : والله ما نسمع شيئاً يا رسول الله . قال أدفنتم اليوم هاهنا رجلين فلاناً وفلاناً ؟ قالوا نعم يا رسول الله . قال فإنهما قد أقعدا يعذبان ويفتنان

فى قبورهم . الآن يضرب أحدهما . ثم قال : والذى بعثنى بالحق : لقد ضرب ضربة ما بقى منه عضو إلا قد تقطع وتطاير على حدته ولقد التهب قبره ناراً ولقد صاح صيحة سمعها الخلائق كلهم واقشعرت منها إلا الثقلين الجن والإنس . ثم سمع ساعة ثم قال : هذا الآخر الآن يضرب . ثم قال : والذى بعثنى بالحق : لقد ضرب ضربة ما بقى منه عضو إلا تقطع وتطاير على حدته ، ولقد التهب قبره ناراً ، ولقد صاح صيحة فزع لها الخلائق كلهم واقشعرت إلا الثقلين الجن والإنس ثم قال : لولا تزيدكم الحديث وتمزيج فى قلوبكم لسمعتم مثل الذى أسمع . ثم سمع ساعة . فقال رجل : بأبى أنت وأمى يارسول الله : وفيم يعذبان ؟ قال : أما أحدهما فكان يسعى بين الناس بالنميمة ، وكان الآخر لا يتنزه من بوله إذا بال . فقال الرجل : يارسول الله متى يخفف عنهما ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غيب لا يعلمه إلا الله إذا شاء أن يرحمها رحمها » .

فلم يذكر أنه وقع[1] فى نفسه من الكبر ولكنه أشفق أن يقع فحذر وتوقى . ومثله ما حدثنا به يحيى بن أحمد الطائى — حدثنا ابن المبارك عن مالك بن أنس عن أبى النضر قال :

« انقطع شراك نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوصل بسير جديد فجعل ينظر إليه فلما قضى صلاته قال : انزعوا هذا واجعلوا الأول مكانه قيل كيف يارسول الله ؟ . قال إنى كنت أنظر إليه وأنا أصلى » .

قال يحيى قرأت على مالك بن أنس هذا الحديث .

قال أبو عبد الله رحمه الله : إنما يذكر النظر لاغير — والنظر سبب من أسباب الفتنة فقطعه توقيا وتحرزا . وكان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبضة عنده يقلبه على استعماله ليكون شأنه وصورته مثالا لمن بعده . فهو صلى

---

(١) فى الأصل « أيتوقع »

الله عليه وسلم — وإن عصم من الفتنة — فإنه لم يزل عنه خوف الفتنة ولو زال لأمن . فكان كل موضع يقلب قلبه فى القبضة يستعمله لكى يستن به من بعده ويكون مثالا .

كانت هناك مخافة تعلوه — وكانت تلك المخافة تنفره من ذلك العقل . ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى زينب[1] رضوان الله عليها — كيف ولى معرضاً آخذاً بيده على عينيه وهو يقول « سبحان مقلب القلوب » . كيف يخبر عن حاله بهذا القول ؟ — إنه قلب قلبه وعصم من الفتنة وهىء له الأمر . فبلغنا أن زينب رضى الله عنها قالت : . لما أعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت فى قلبه لم يستطعنى زيد وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منى فلا يقدر على « حتى طلقها . فلما انقضت العدة : قال الله تبارك اسمه « فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها[2] » . فكانت تفخر على سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول : أقربكن[3] رحماً ، وخيركن منكحاً ، وأكرمكن سفيراً ـ جدى وجده واحد ، ووليي رب العرش زوجنى من العرش ، والسفير فى ذلك جبريل صلوات الله عليه » .

فكان الله تبارك اسمه يقلب قلبه للأمور كى يبقى ذلك معلما للعباد وهو تدبير الله له ولخلقه فى العبرة . ألا ترى أنه قال « ألقى إلى السهو لكى تستنوا » . فلهذه الأشياء حوادث على قلبه من أحكام رب العالمين .

حدثنا أبى ـ حدثنا مطرف عن مالك بن أنس بلغه أن رسول الله صلى الله

---

(١) هى زينب بنت جحش أم المؤمنين — كانت زوجة لزيد بن حارثة الذى كان قد تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم نزل قوله تعالى : فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً » .من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٣) هذا فى الأصل ولعله أسقط كلمة (أنا أقربكن رحماً) .

عليه وسلم قال « إنى لأنسى لِأُسِنَّ » . فهذه الأشياء دخيلة وليست بأصلية براوية من بعده إلى آخر الدهر .

ولقد كان قلبه من الله بالقربة محل دق فى جنبه شأن الدارين . فهذه حوادث تلقى إليه والأصل على ما أخبر أن الله جعل قرة[1] عينه فى الصلاة .

وأما قوله فى الخبر الذى جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوسوسة فى الصلاة من صريح الإيمان ولا تكاد تخطىء مؤمنا :

حدثنا يوسف بن عبد الله حدثنا يزيد بن هارون عن إسماعيل بن عياش عن عقيل بن مدرك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الوسوسة فى الصلاة من صريح الإيمان ولا تكاد تخطىء مؤمنا[2] » .

قال أبو عبدالله رحمه الله : وما ذكر عن حديث إبراهيم النخعى رحمه الله أنه قال : « قبول صلاة المؤمن الوسوسة » وذلك أن أهل الكتاب لا يوسوسون وهذا مفهوم . وذلك أن العدو قد فرغ من أمرهم فليس له بهم إشتغال . إنما يشتغل العدو بمن عنده شىء حتى يسلبه ويفسده عليه . وهل رأيت لصاً يقصد لبيت خال خرب ؟ أو لبيت لنفسه بالإستراق منه ؟ . فكذلك قلوب أهل الكتاب والكفر بالله خالية من جميع الخير ممتلئة من جميع الشر . قد صيرها الشيطان لنفسه بيتا ، ومسكناً . فماذا يصنع بعد هذا بوسوسة ليفسد صلاته . والشرك الذى فى قلبه أعظم من الوسوسة . فإذا وسوس إلى هذا المصلى المؤمن كان ذلك دليلا على أن هاهنا شيئا[3] يريد أن يسترقه . فطيب نفوس المؤمنين بهذا لما اغتنموا بهذه الوسوسة وخافوا على أنفسهم ـ كما كان أحدهم يخاف النفاق على نفسه . فإذا قلق وضاق به ذرعا سأل عن آيات النفاق ودلائله .

روى عن بعض أهل[4] الحديث : أن رجلا سأل بعض أصحاب رسول الله

(١) فى الأصل « قرة عينى » ولكنها ليست مناسبة .
(٢) هذا الحديث مكرر فى الأصل حديثين بنفس الصيغة فأسقط التكرير .
(٣) فى الأصل شىء بالرفع .
(٤) فى الأصل بإسقاط « أهل »

صلى الله عليه وسلم فقال : إنى أخاف النفاق على نفسى . فقال : أتسرك حسنتك وتسوءك سيئتك ؟ قال نعم . فقال لست بمنافق . وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » . وقال بعضهم « خوفك من النفاق علامة إيمانك » . فكانوا إذا ضاقوا بمثل هذا ذرعا : بشرتهم العلماء ودلتهم على آية وعلامة يستدلون بها على صحة الأمر .

فكذلك شأن هذه الوسوسة قد عم الجميع إلا من عصم الله وقليل ما هم وهم السابقون فى كل قرن . فبشرت العامة بأن هذه من علامة القبول : لا أن الوسوسة محمودة فى نفسها أو صاحبها فى علياء الدرجات عند الله . وهذا قول « الأغتام[1] والجهلة » دعاهم جهلهم إلى أن أنكروا أن وراء هذا مرتبة للقلوب تنجو بها من الوسوسة . وذلك لما فتنت ببهجة الدنيا خربت من الهدى فحلت هذه الوسوسة فى صلاتهم فلقنتهم نفوسهم أن هذه طاقة العبادة ومبلغ الأمر فطابت نفوسهم ولقوا العامة بمثل الذى وجدوا من أنفسهم واصطلحوا على سوء الحال يعذر بعضهم بعضا ، ويزكى بعضهم بعضا . فهذا تلقين النفس وجزعها : نعوذ بالله من ذلك . فلو أنهم تعلموا هذا السبيل ثم بينوا للناس المذهب فيه وكشفوا عن حالتهم — بأنا قوم مفتونون أمثالهم — لكان عسى أن يخفف عنهم غدا إصر[2] هذا ووباله وإثمه ، ولكنهم كما قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه فيما روى عنه « بحق أقول لكم إن شركم عملا : عالم يحب الدنيا فيؤثرها على علمه ـ لو يستطيع جعل الناس كلهم مثله فى عمله ما أحب إلى عبيد الدنيا أن يجدوا معذرة وما أبعدهم منها لو يعلمون » .

والقلوب ثلاثة : ١ — قلب خالى[2] عن الإيمان وجميع الخير مظلم وهو

(١) الأغتام : جمع أغتم وهو الذى لا يفصح شيئاً .
(٢) هو الإثم والذنب .
(٣) هكذا فى الأصل والصحيح « خال »

قلب الـكافر — فذاك لا يوسوس لأنه بيت الشيطان محشو ببضاعته .

٢ — وقلب فيه إيمان وقد استنار بنور الإيمان وعليه ظلمة الشهوات — فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومحاولات ومطامع فلا يخلو من الوسوسة .

٣ — وقلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الله وانقشعت عنه حجب الشهوات وانقطعت عنه الظلمات فلنوره فى صدره شرق ، ولإشراقه شمع ، ولشعاعه شعل . فإن دنا منه وساوس صار رماداً : وأية وسوسة تجترىء على الدنو منه ؟ فمن تعاظم[1] هذا الذى قلنا استشهدنا له من الظاهر ما لا يقدر أن يدفعه .

هذه السماء قد حرست بالنجوم فإن دنا منها[2] الشيطان ليتخطاها رجم فاحترق فإن لم يحترق خبل — فليست إليها بأعظم حرمة من قلب المؤمن — وأين تقع السماء من حرمة قلب المؤمن . فإن السموات متعبد الملائـكة ومختلف الوحى ومستقره وفيها نور الطاعة — وقلب المؤمن مستقر نور الله لحقيق أن يحرس حتى لا يكون للعدو عليه كيد . فأنزل الآن ثلاث بيوت منازلها .

١ — فبيت الملك فيه كنوزه وجواهره .

٢ — وبيت للعبد له فيه شىء من عطايا الملك

٣ — وبيت لعبد له خال[3] صفر لا شىء فيه .

فجاء بعض عبيد الملك فأراد أن يسرق من هاهنا شيئاً فلأى المنازل يقصد ؟ فإن قلت للبيت الخالى فقد أجلت[4] . وإن قلت لبيت الملك فقد أفرطت . إذ لا سبيل إلى ذلك لأن حارسه الملك بنفسه . وكيف يستطيع أن يدنو منه وحوله خندق من

(١) فى الأصل . . تعاظمه . . بزيادة هاء فى آخره
(٢) فى الأصل منه .
(٣) فى الأصل خالى .
(٤) ذهبت برأيك هذا بعيدا عن الصواب .

النار إن دنا منه احترق . وهو النور الذى قد أحاط به واحتشى منه صدره . . فهو حصن حصين لا يطاق . فهل بقى إلا هذا البيت[1] الواحد الذى فيه بعض عطايا الملك لبعض عبيده ؟ وطمعه فى هذا البيت وقد انقطع طمعه من البيت الآخر لأن الملك مقبل عليه لا يكل حراسته إلى غيره .

فـكذلك شأن هذه القلوب :

١ — قلب خلا من كل خير وهو قلب الـكافر . فذاك بيت الشيطان قد أحرزه لنفسه وكل ما فيه له . فلأى شىء يسرقه ؟ .

٢ — وقلب ليس فيه إلا الله فذاك بيته فأى شيطان يجترىء عليه ؟ وإن أراد استراق شىء فماذا يسرق فإن القلب خلا من الدنيا والآخرة ومن أحوال النفس فيها ، ولم يبق فيه إلا جلال الله وعظمته . فأى شىء يسرق الشيطان منه . ومما يحقق ما قلنا من صفة هذا القلب ما روى عن وهب بن منبه وعن آخرين سواه فيما يحكون عن الرب تبارك اسمه أنه قال :

« لست أسكن السموات ولا تسعنى ، وأى بيت يسعنى والسموات حشو كرسى ؟

ولـكن إن أحبوا أن يعلموا فإنى فى قلب الوارع التقى والوارع التارك بقلبه لـكل شىء . سؤله الذى يبقى على إيمانه أن يمازجه أدق شهوة من شهوات الدنيا » كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الإيمان حلو نزه فنزهوه » . وفى هذا كلام كثيراً استقصيناه فى موضع آخر فى كتاب « غور الأمور » .

٣ — وقلب ثالث فيه توحيد الله ومعرفته وفيه شهوات النفس وأخلاق الهوى . فمرة يميل بقلبه إلى[2] سلطان المعرفة ، ونور التوحيد ، ومرة يميل بقلبه

(١) وهو النوع الثانى فيما ذكرنا قبل ذلك .
(٢) سقعات .. إلى .. فى الأصل.

إلى شهوات النفس وأخلاق الهوى . فهذا للشيطان فيه مطمع . فلا يزال يوسوس إليه فى صلاته بما وجد فى صدره من أسلحته وهى الشهوات حتى يسلب منه ذلك الخير الذى فيه . فهذه الشهوات سلاح العدو وعدته عليك . فإن أنت أمسكتها فى بيتك حتى يأتيك العدو فيقتلك بسلاحك — كنت أنت الملوم على ذلك.

ومما يحقق ما قلنا فى شأن القلوب : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بنى إسرائيل فشهدت أبدانهم وغابت قلوبهم » . وإنما نسبت الفتنة إلى القلوب — ولكن الفتنة للعقول التى فى القلوب .

وما جاء عن مالك بن دينار أنه قرأ فى بعض الكتب « الذى غلب الشهوات فذاك الذى يفرق[1] الشيطان من ظله » .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه : « ما سلك عمر فجا[2] إلا سلك الشيطان فجا غيره وترك الطريق عليه » .

وما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . ما لقى الشيطان عمر فى طريق الاجرى » حدثنا بذلك عبد الرحمن بن الفضل بن الموفق الكوفى — حدثنا أبى عن إسرائيل عن الأوزاعى عن سالم عن سديسة مولاة حفصة قالت :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما لقى عمر الشيطان إلا خر[3] لوجهه »

فإن اعترض معترض فاحتج بما لقيت الأنبياء من هذا العدو — قيل له إن ذاك أمر[1] عارض وحكم من الله عن طريق التدبير والابتلاء ، وليس على الأساس. كما جعل للعدو سبيلا إلى السماء السابعة ثم منع ، وكما جعل السبيل إلى دخول الجنة على ابتلاء آدم صلوات الله عليه ليغويه . فهل وجد السبيل بعد تلك المرة ؟ فكذلك شأنه مع الأنبياء — إنما وجد السبيل إليهم بعلة من العلل .

(١) يهرب . (٢) طريقا . (٣) خر : سقط

(٤) ولكن ذكر فى الأصل «أمرا عارضا حكما» كلها بالنصب ولا مبرر له لأنها خبر إن . أما بالنصب فنقول لعل كان سقطت من الجملة فيجوز إذن العصب (ويكون الكلام إن ذاك كان أمرا عارضا وحكما) .

وأما ما جاء أن الوسوسة فى الصلاة من صريح الإيمان : فهو لصاحب هذا القلب الذى قد امتزج نور الإيمان بظلمة الشهوات فى صدره فهو يميل هكذا وهكذا وهم أهل الغفلة . فليس معناه أن نفس الوسوسة من صريح الإيمان ، ولكنه الذى يحدث من الوسوسة وهو رد ما جاءت به الوسوسة . وذاك أن القلب فى غطاء الغفلة — فإذا وسوس أنكره العبد وذاك من اهتياج الإيمان . فإذا هاج أنكر وفزع إلى الرد . ففزعه وقيامه بالرد يكشف عن غطائه ويشرق نور الإيمان . وقد صرح بالإيمان جهراً فى ذلك الوقت بقلبه وصدره . ومثله ما جاء فى وسوسة الشرك أنه محض الإيمان . فليس معناه أن الذى وسوس العدو من الشرك هو محض الإيمان . ولكن الذى حدث منه من رده بالإنكار — هو محض الإيمان وذلك أن الإيمان لما هاج بالإنكار اشتعل فأشرق فذاك أمحق[1] وأخلص من الذى كان قبل الوسوسة فهو صريحه ومحضه .

وذلك بمنزلة جمرة متوقدة علاها الرماد فلا يوجد لها حر ولا ضوء منه تحت الرماد . فإذا نفختها فطيرت عنها الرماد : توقدت وتلهبت — فأضاءت بتوقدها ووجد حرها من صلى بها .

فليس فى هذا الحديث الذى أثبت به ما يدل على أنه ليس وراء هذا شيء فمن خفى عليه من وراء هذا من شأن القلوب — اعتمد على هذا وطاب نفساً — ثم تراه إن استقبل بشىء من خبر شأن القلوب على ما ذكرنا بدياً من المنازل التى لها عند الله — اشمأز واحرنبى[2] ، وهو فى وجهه محبنجراً[3] مكفهراً بالرد والإنكار فإن كلمته بلسان الحق على بساط الإنصاف — اغتر بذلك السفه ، فويل لهم كيف يحلون عرى الإيمان عروة عروة — حسبتهم هم الذين قال لهم رسول الله صلى الله

(١) أمحق — أى أمنع وأبطل وأمحى .
(٢) أحرنبى الديك — أى انتفش للقتال .
(٣) احبنجر — انتفخ غضبا .

عليه وسلم « مساجدهم عامرة من أبدانهم ، وقلوبهم خربة من الهدى — منهم تخرج الفتنة وعليهم تعود » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا ولـكنه يقبضه بموت العلماء » .

فإذا كان ذاك : اتخذ الناس رؤساء جهالا فضلوا وأضلوا . فمن تحلى بظاهر هذا العلم وتزين به عند المخلوقين يؤكد فيهم بذلك رئاسته تأكداً لهذا الخطأ . والذى يرمى به غداً من الموقف وسط الميزان وهما عن باطنه اتقى علام الغيوب مفترا به فبلى سرائره وحصل ما فى صدره فوجد مدخول الظاهر والباطن — زائغ القصد — متقلب الوجه عن الوجهة — يمشى مكبا على وجهه — مقبلا على هم نفسه — يتخير الشهوات ويتخطى فيهن المنى بأعمال الرويات — فهذا أهدى أمن يمش سويا على صراط مستقيم ؟ قد أمكن الحق من ناصيته ورمى بطرفه إلى الأرض تذللا وهدأت جوارحه تخشعاً وصمت لسانه توقراً وسكنت أطرافه تهيجاً وشخص فؤاده إلى الله تعالى نفوتا وطار قلبه إلى الله تلوذاً وتخلقا وفتح له الباب وولج عرصة مالك الملوك ونظر إلى مراتب السادات ومجالس الأحباب ورتب له ما هنالك ورفع له الحجاب فقرت به العينان وإذ منه لذاذة النجوى والجنان — وهذا باب غلق ممتنع لا يفتح إلا لأهله — أولئك رزقوا أنفسهم لجعة الموت ومرارته قبل الحلول أماتوها من كل شهوة وهذا من قبل أن يموتوا[1] فتطهروا من أدناسها وتنزهوا من أسفالها وخرجوا بقلوبهم براة[2] عراة إلى الملك الأعلى ففروا إليه من كل حركة كانت للهوى فى قلوبهم دنياوية . فجعلهم الله أهلا لفتح الباب وولوج العرصة فى ذاك المعسكر الذى شمسه النور الأعظم يشرق بالبهاء والضياء فيصير خلعاً على القلوب — تلك قلوب مشغولة وجوهها بنور الله — تلك خلع لا تشبه خلع أهل القلوب فى ظاهرهم — تلك خلع تخمد لها النيران غداً حتى يمضوا

(١) فى الأصل يموت .
(٢) أى برآء طاهرين .

على ظهرها وهى خامدة لا يشعرون بها فيجوزونها إلى الله فى جواره فى الفراديس العلى . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحارثة حين قال : كأنى أنظر إلى عرش ربى » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا عبد نور الله الإيمان فى قلبه » فلما مات قالت أمه : يا رسول الله أخبرنى عن حارثة : أفى الجنة هو ؟ قال إنها جنة فى جنان ولـكنه فى الفردوس الأعلى » .

حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء — حدثنا يوسف بن عطية — عن ثابت عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عبد الله رحمه الله : وحدثنا الفضل بن محمد الواسطى البلخى — حدثنا جعفر بن معاقر عن ابن أبى فديك عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الجنة مائة درجة — ما بين كل درجة كما بين السماء والأرض — وأوسط درجة منها الفردوس وهى أعلاها — وعليها يكون العرش — ومنها تفجر أنهار الجنة — فإذا سألتم فاسألوا الفردوس » .

حدثنا الفضل — حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى — حدثنا سعيد بن بشير عن ابن أبى نجيح عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الفردوس مقصورة الرحمن فى جنته — فيها خيار الأنهار والثمار » .

حدثنا الفضل — حدثنا محمد بن الوزير عن الوليد — حدثنى من سمع ابن أبى نجيح يخبر أن مجاهداً قال : « إن الله تبارك وتعالى خلق جنة عدن بيده — وعدن تهدى لنبيه وهى الفردوس بالرومية فلما بلغت ما أراد من ذلك أمرها فغلقت على ما فيها فلم ينظر فيها ملك مقرب ولا خلق — وربك ينظر إليها كل سحر فيقول « قد أفلح المؤمنون » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فمن يروم نفى الوسوسة فيسأله أن يفرغ قلبه من

أشغال النفس، وأحوالها . فإنما دنيا المرء نفسه وشهواته . ولهذا ما روى عن رسوله الله صلى الله عليه وسلم : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم » .

حدثنا بذلك أحمد بن مطرف التمانى — حدثنا محمد بن بشير العبدى — عن حميد بن العلاء بن أبى رهزة عن محمد بن سعيد عن إسماعيل بن عبد الله عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم . فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله عليه صنيعته ، وجعل فقره بين عينيه — ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله أموره وجعل غناه فى قلبه . وما أقبل عبد بقلبه على الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإذا جمع الله لعبد أمره وجعل غناه فى قلبه فما بقى للوسواس فى قلبه من الحديث . وبأى شىء يحدثه ؟ . وإذا أفشى الله على عبد أمره وجعل الفقر بين عينيه فكيف يجد راحة من حديث الوسوسة ؟. فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أراده وأن الصدر بيت القلب والشيطان قد مكن له هناك ليحدثه على قلبه .

حدثنا أبى — حدثنا الحمانى — حدثنا عدى بن أبى عمارة — حدثنا زياد المهلبى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس[1] وإن نسى التقم قلبه » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فمن أراد نفى حديثه فليترك شهواته . فإنه فيها يحدثه ولا يطمعن فى نفيه وهو مع شهواته .

ومثل ذلك مثل مغن[2] عمدت إليه فسلبته . ثم جئت به فجلست فى المسجد فتبعك يغنى على رأسك ويتكلم بالخنى[3] . فإن آذاك مكانه وأردت نفيه قال

(١) خنس : غاب وتخلف ولم يجرؤ على الظهور . (٢) فى الاصل مغنى .
(٣) هو الكلام الفاحش

لك : أنت بدأتنى حيث أخذت سلبى وأنت أو لجتنى[1] مكانك فإن أردت خروجى وكفى عنك فرد علىّ سلبى . فقد حجك[2] وقطع عذرك فى شكاتيه .

فكذلك هذا الوسواس يقول : هذه الدنيا لنا وإياها آثرنا والآخرة لك أيها المؤمن . فمتى زاحمتنى على دنياى أفسدت عليك آخرتك فإن قلت كيف لا أزاحمك فى دنياك ومعيشتى فيها ؟ قال لك : إن الذى قدر لك فى اللوح المحفوظ هو رزقك فبأيهما تحدث نفسك ؟ أمن الذى قدر لك فى اللوح ؟ أم من الذى لم يقدر لك ؟ فإن كان من شىء قد فرغ منه فانت مهجن[3] ملوم ، وإن كان حديثك من الذى لم يقدر فى اللوح : فإنما حديثك فى شىء غيرك وهو نصيبى الذى أعطيت . فإن زاحمتنى فيه : زاحمتك . فقد حجك وخصمك عدوك . أفلا يحق على المؤمن أن يأنف من هذا . فليس له فى واحد من هذين فكرة ولا حديث .

فيقول المبتلى بهذا: فانه ركب فىّ الشهوات ويتردد فى صدرى ذكرها فكيف أصنع ؟ قيل له : إنما يتردد ذاك فى صدرك لخلاء قلبك من خشية الله وجهلك بعظمته، وتربية تلك الفكر بما تباشر من النعم : شَرِهاً أشراً فرحا بطرا غافلا عن أن لكل نعمة تبعة ، وأن أثمان النعم شكرها ، وأن الشكر استقامة القلب مع جميع أركانه مطيعا لله تبارك وتعالى . والدليل على ذلك : لو أن بيتا فيه غرف وقصف وسرور وجلبة عرس : وقع فيه الخبر أن الأمير قد تقحم : لصاروا كأنهم موتى فسكنت الأصوات ، وخمدت الأمور

وكذلك تجد الرجل على طعام ولهو وضحك ونشاط أو أفراح فاذا قلت له : أنت ذكرت عند الأمير الآن فى مجالسه بسوء — تغير لونه ، وتشتتت أحواله وخمدت أفراحه ، وألهاه ما يدخله من الخوف عن جميع ما كان فيه من السرور والإنبساط .

(١) أدخلتنى
(٢) غلبك
(٣) المهجن — هو المستقبح فعله .

فاذا كنت ترى ما يحل به من سلطان الدنيا فما ظنك بمن حل بقلبه جلال عظمة الله ؟ احتوشته الخشية من الملك العزيز الجبار · فان دخلت أعضاؤه بعضها فى بعض فغير مستنكر .

وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى جنح أى انقبض .

وبلغنا أن على بن الحسين كان إذا توضأ أخذته رعدة فقيل له فى ذلك — فقال : أتدرون على من أريد أن أعترض ؟ .

فقد بان لك فيما وصفنا مصيبة هذا الخلق أنهم لم يصابوا بأهل ولا ولد — وإنما أصيبوا بفقد الخشية والجهل بالله ·

ومثل من يتزين بظاهر الأعمال وباطنه خالٍ [1] من ذلك كهذه الصور التى يتخذها أهل الصين فيما بلغنى . فإنه بلغنى أنهم يتخذون من الحرير مثالا كالصورة والجسد فإذا نظر الناظر إليها حسبها آدميا فى أعلى صوره كهذه الصور التى تنقش فى هذه الكنائس والبيع فيتخذ مثالا من الحرير يحشى منه موضع ويترك منه موضع على جهة ما يليق ويتزين ثم تلبسه إحداهن فيصير فى أعين الناظرين فى هيئة امرأة لا قياس عليها : جمالا وكمالا — جمالا فى الصورة وكمالا فى الأعضاء — فيعجب الخلق بها ويتعاظم عندهم شأنها . فبينما هى كذلك إذ مَدَّ مَادٌّ يده إليها فنزع عنها ذلك المثال فإذا هى تشيح [2] للناظرين ويتعوذ المتعجبون [3] حتى يقول قائلهم : هذه قردة أو خنزير نعوذ بالله من عشرتها والويل لمن ابتلى بصحبتها . وأخرى هى فى أجمل صورة وأكمل أعضاء وأتم قامة وأطرى طراوة : لبست هذا المثال فأعجب الناظرون بها فى هذه الصورة وحسن موقعها عندهم كمثل الأولى [4] . فمد ماد يده إليها فنزع عنها هذا السربال والمثال فإذا هى

(١) فى الأصل خالى

(٢) أى تظهر .

(٣) فى الأصل « المتعجبين » بالنصب

(٤) فى الأصل الأول .

بهتت الناظرين وتهليل المتعجبين حتى يقول قائلهم : آدمية هى أم جنية أم من الجنان فرت مثلا ؟ فإذا الصورة التى قد نقشت ومثلث تدق فى جنب جمال صورتها [1] الخلقية . وإذا كمال أعضائها يفوق المثال ويتلاشى ما نظر الناظرون لما بدا لهم من تحت هذا المثال والصورة .

هذا هكذا فى الدنيا فكيف بالمطيع لذى يتزين بظاهر الأعمال ويحلى جوارحه بظاهر أعمال البر عند هذا الخلق . فصارت هذه الحلية والزينة كمثال جسد كامل الحسن فى صورة جميلة فأعجب بها أهل الدنيا بهيئته وصفته وتماوته ورمى بصره إلى الأرض فى مشيته ومد عنقه فى هيئة المتواضعين وخشوع نفاقه وانقباضه عما يظن أن فيه انكسار رئاسته وسقوطه من أعين الخلق وتعاظم عندهم نصبه وتعبه وكلاله واجتهاده فى أعمال البر . فلما أشرف على الناس فى تلك العرصة العظيمة يوم الموقف فأقيم مقام العرض الأكبر بين يدى الله وقد شخصت أبصار الخلق ينظرون إليه لما عرفوه فى دار الدنيا بظاهر هذه الأشياء فجاء الحق ومد يده إليه فنزع عنه سربال الظاهر الذى كان لبسه فى هذه الأعمال فبدت من تحته صورة أخرى وجسد آخر — وهو صورة القلب وضميره — مع هوائل ما فيهما من الأقذار والخرق والميتة مع ظلمة وقبح وشين لا يحصى من الإعجاب بالنفس والكبر والنخوة والعظمة والتية والأنفة والحسد والحقد والغل وحب العز وحب الثناء وطلب المحمدة وطلب الرئاسة والعلو والشهوات التى كانت مضادة لقضاء الله وأحكامه وكان يتلقى أحكامه بالكره والجفاء .

فإذا هو لما بدا من تحت سرباله أقبح من خنزير أو قرد بين يدى رب العالمين فكذلك هذا الذى تحلى وتزين بقيام وركوع وسجود وجثو على الركبة .

ومثال هذا فى الظاهر ما يعجب الناظرون إليه . وكذلك سائر أعمال الظاهر فإذا نزع عنه هذا السربال غدا فبدا قلبه وضميره فى الصورة التى يعرفها الآن من

(١) فى الاصل صورته .

نفسه مما ذكرنا من هذه الدواهى والأفاعى التى سمومها أسقمت إيمانه وأمرضت قلبه صارت عدة فى الموقف غداً .

فليت شعرى بأى شيء يقطع الصراط فى مثل حد السيف .وقد علم أن الناس إنما يقطعونه بالإيمان واليقين ولو كانوا يقطعونه بظاهر الأعمال إذن ابرز المعمرون بطول أعمارهم[1] من قوم نوح إلى زمن بنى إسرائيل فإنهم نالوا من أعمال الظاهر بطول أعمارهم مالم تنله أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم السبق والتقدم فى كل مكان ولهذا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل يارسول الله :

« أى الناس أفضل ؟ : قال كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان . قالوا وما محموم القلب ؟ قال : التقى النقى الذى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل »

فهذا شأن أهل الصلوات الخمس على ما ذكرنا بديا : أن أهل العهود منهم يدخلون الجنة بغير حساب سباقاً . وهم صنفان.

١ — صنف أقبلوا عليه فاشتغلوا بالصلاة عنه .

٢ — وصنف أقبلوا عليه فاشتغلوا به عن الصلاة وهذا أعلى .

٣ — والصنف الثالث أهل مجاهدة . وفى الجهد تكفير السيئات ومحو الخطيئات فيحتاج إلى مهلة فى الموقف حتى يقابل الصلوات بتلك السيئات فتمحى ، ويمضى إلى الجنة على أثر الصنفين السابقين . وما سوى ذلك أهل تضييع وتفريط وهم فى المشيئة عند الله موقوفون بين عذاب ورحمة هذا شأنهم فى الآخرة.أما شأنهم فى الدنيا حديث البراوات .

(1) فى الأصل بطول أعمالهم

« حديث البراءات »

حدثنا محمد بن عيسى بن عبد الله الربعى — حدثنا الهيثم المكى عن الربيع ابن بدر عن سوار بن شبيب عن وهب بن منبه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن لله ملكا يسمى « سمحائيل » وهو من ملائكة الحجاب يأخذ البراءات للمصلين عند كل صلاة من رب العالمين .

١ — فإذا أصبح المؤمنون قاموا وتوضئوا وصلوا صلاة الفجر فأخذ من الله براءة لهم فيها مكتوب[1] بخط الله الأول الباقى. عبيدى وإمائى فى حذرى جعلتكم وفى ذمتى وحفظى وتحت كنفى ميزتكم نوعزتى : لا أخذلكم — مغفور لكم إلى الظهر .

٢ — فإذا كان وقت الظهر : قاموا وتوضئوا وصلوا : أخذ من الله براءة ثانية مكتوب فيها : عبيدى وإمائى بدلت سيئاتكم حسنات وغفرت لكم السيئات وأدخلتكم برضائى دار الجلال .

٣ — فإذا كان وقت العصر : قاموا وتوضئوا وصلوا : أخذ من الله البراءة الثالثة مكتوب فيها : عبيدى وإمائى تصعدت إلى ملائكتى من عندكم بالرضا فحق على رضاكم وأنا معطى . حرمت أبدانكم على النيران ، وأسكنتكم مساكن الأبرار ودفعت عنكم برحمتى الأشرار .

٤ — فإذا كان وقت المغرب : قاموا وتوضئوا وصلوا : أخذ من الله البراءة الرابعة مكتوب فيها : عبيدى وإمائى صعدت إلى ملائكتى من عندكم بالرضى فحق على رضاكم وأنا معطى يوم القيامة منيتكم .

(1) هكذا فى الاصل والصحيح « براءة لهم مكتوب فيها »

٥ — فإذا كان وقت العشاء : قاموا وتوضئوا وصلوا : أخذ من الله البراءة الخامسة مكتوب فيها : عبيدى وإمائى فى بيوتكم تطهرتم وإلى بيوتى مشيتم وفى ذكرى خضتم وداعى أجبتم وحق عرفتكم وفرائضى أديتم . أشهدك يا سمحائيل أنت وسائر ملائكتى أنى قد رضيت عنهم . فينادى سمحائيل ثلاثة أصوات كل ليلة بعد صلاة العشاء : « يا ملائكة الله : إن الله قد غفر للمصلين الموحدين : فلا يبقى ملك فى السموات السبع إلا استغفروا للمصلين ودعوا لهم بالمداومة عليها[1]

فمن رزق منهم صلاة الليل : فما من عبد ولا أمة قام لله مخلصاً فتوضأ وضوءاً سابغا فصلى : إلا جعل الله خلفه سبعة صفوف من الملائكة : فى كل صف من الملائكة ما لا يحصى عددهم إلا الله . أحد طرف صف بالمشرق والآخر بالمغرب . فإذا فرغ كتب الله بعدد هؤلاء الملائكة حسنات ومحى عنهم بعددهم سيئات ورفع لهم بعددهم درجات » .

قال الشيخ : وكان الربيع بن بدر إذا حدث الناس بهذا الحديث يقول : أين أنت يا غافلا عن هذا الكريم تغفل عنه ؟ أين أنت عن قيام هذا الليل وعن جزيل هذا الثواب وتلك الكرامة ؟ ويحك لا تتهاون به .

قال الربيع بن بدر : والله ثم والله : لقد لزمت سوار بن شبيب : ثلاث سنين فى طلب هذا الحديث حتى أفادنيه ، وقال سوار بن شبيب : والله لقد لزمت وهب ابن منبه وكنت عنده غريباً أحد عشر شهراً فى طلب هذا الحديث حتى أفادنيه ، وقال منصور : والله ثم والله : لقد لزمت الربيع بن بدر أربع سنين وزيادة شىء فى طلب هذا الحديث حتى أخذته منه ، وقال أحمد بن هاشم الخوارزمى : والله لقد سألت منصور بن مجاهد هذا الحديث نحوا من سنة أقول له حديث براءات المصلين : حتى كان يسمينى « براواتى » . « هذا آخر كتاب الوسوسة »

(١) فى الاصل (عليه)

والحمد لله أولا وآخراً وظاهراً وباطناً وعلى كل حال ، وجعل الله آخر كلامنا : لا أله إلا الله محمد رسول الله . بلا إله إلا الله تنقطع الوسوسة .

وإنما تنقطع الوسوسة عن أصل لا إله إلا الله إذا كان السلطان — (للا إله إلا الله) لأن سلطانها حق — والوسوسة باطل : ولا بقاء للباطل مع سلطان الحق فأهل الحق معصومون عن الوسوسة لأن الشياطين تخر من ظلهم وتأخذ فجا آخر . كما قال صلى الله عليه وسلم :

« ما سلك عمر فجا إلا وسلك الشيطان فجا غيره » وما أراد به الفج الظاهر على مايفعله أهل الظاهر وإنما أراد الفج الذى خص به عمر وهو الحق . لأنه يخر لظله ويفرق من ظله . فإذا لم يقم لظله كيف يقوم لقلبه ؟ .

وأما شأن العهود فى هذه الصلوات فإن هذه الصلاة افترضت هناك عند سدرة المنتهى وكتبت على هذه الأمة . بأنها كانت خمسين تخففت عن الأمة وحسبت لهم الخمس بخمسين فإذا صليت خرجت براءات بالأداء لأنها كتبت عليهم فصارت تلك البراءات عهوداً عليهم يأتون بها يوم القيامة .لأن البراءات خرجت من الحجاب إلى « سمحائيل » ثم وضعت فى الخزائن لأهلها ليوم القيامة ليلقوا الله تعالى بالبراءات التى كتبت عليهم وذلك قوله : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً [1] »

فإن قال قائل : فقد ذكر الله عز وجل الصوم فقال « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم [2] » وقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس »[3] فيقال له إن الكتابة كثيرة . فأما كتابة الصوم والقود[4] وما أشبهه فانما كتبت فى التوراة التى فى اللوح المحفوظ وفى القرآن الذى فى االوح – وكذلك

(١) الآية ١٠٣ من سورة النساء
(٢) الآية ٨٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٤٥ من سورة المائدة .
(٤) القود هو القصاص .

الصلاة كتبت هناك مثل الصوم . ولكن هذا كتاب آخر . فلذلك قيل : الصلوات المكتوبات ولم يقل : الصيام المكتوبات ، ولا الزكاة المكتوبة . فانما خصت الصلاة بذكر الكتابة لأنها بعد ما كتبت فى اللوح : كتبت علينا ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم عند السدرة ، وهناك افترضت وغشى السدرة ماغشى من النور .

فهذه كتابة مع العهد ورسولنا صلى الله عليه وسلم سمع صرير الأقلام وهذا عندنا نظير قوله « وقربناه نجيا[1] » . أدناه حتى سمع صريف الأقلام حيث كتب الله لعبده موسى صلى الله عليه وسلم التوراة .

فكتابة الصلوات الخمس لنا من هذا الطريق . وهى كتابة مع العهد فلذلك قال « يخرج إلى سمحائيل البراءات بخط الله الأول الباقى فإذا لقوا الله بتلك البراءات فهى عهودهم التى نجاهم الله بها وأدخلهم الجنة .

حدثنا أحمد بن يحيى الأزدى — حدثنا إسحاق بن منصور عن يحيى ابن عبد الرحمن عن إسماعيل بن إبراهيم عن أبيه أبى مليكة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أفضل العمل الصلاة ثم قراءة القرآن فى غير صلاة والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد ثم الصدقة ثم الصيام » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فوجدنا أعمال البر كلها عبودة المؤمن لربه ، وجواهرها مختلفة متفاوتة . فمن العبودة ما هو فى صورته مسكنة وانتباه وإلقاء باليدين سلما ومخرجة من الإيمان وذلك الصلاة » .

ومنها ما هو بنفسه شعبة من شعب الإيمان وذلك : إطعام الطعام « وهو فعل الله

---

(١) الآية ٥٢ من سورة مريم .

الأعظم فهو يعولهم فى البر والبحر ولا يعوزه شىء ولا يملهم ولا يؤثر عيالته إياهم فى طول الأبد دنيا أو آخرة فيما لديه من خزائنه » .

فنظرنا إلى جوهر كل بر من الأعمال فوجدنا الصيام « كف نفس عن الشهوات ساعات من عمرك بياض يومك ثم تعود إليها » .

ووجدنا الزكاة « هو التخلى عن محبوب الفتنة بوجود المنافع منها . فحملت على نفسك مفارقته » .

ووجدنا الحج « هو ميل إلى موضع مأمول هناك رحمته طالباً لمعروفه راجياً لغفرانه والنجاة من عقوبته متعوذاً بالبقعة التى شرفها على سائر البقاع » .

ووجدنا الجهاد « تقصياً وحمية له ونصرة على أعدائه وولائه وحقوقه » .

ووجدنا الصلاة « مقام اعتذار بين يديه مما جنت اليدان واكتسبت فإن الآدمى خلقه عبداً والعبد لا يستعمل جارحة من جوارحه إلا باذن مولاه . فوكل هذا العبد بحفظ هذه الأمانة التى عرضت على السموات السبع والأرضين والجبال فأشفقن منها وأبين أن يحملنها وحملها الإنسان » آدم صلوات الله عليه « قلدها فصارت فى أعناق ولده إلى يوم الوفاة . فمن الجوارح السبع : اللسان والعين والأذن واليد والرجل والبطن والفرج . وعلى كل جارحة منهن عهد من ربه مثلو ذلك العهد فى التنزيل . فالعبد مأمور برعايته هذه الجوارح ثم ذكرهم فقال « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون[1] » ثم ذكر ثوابهم فقال تبارك اسمه « أولئك فى جنات مكرمون[2] » فكان بمنزلة عبد[3] لك يرعى لك سبعة من الغنم . أمرته أن يرعى بهن المرعى الطيب . ويحفظهن من « الذفلى[4] » وسائر المنابت اللاتى يقتان.

---

(١) الآية ٣٢ من سورة المعارج .
(٢) الآية ٣٥ من سورة المعارج .
(٣) فى الاصل « عهد لك » .
(٤) الدفلى : نبت مر قتال — نافع للجرب والحكة ولوجع الركبة والظهر .

وأن يرد بهن صفوة الماء فى وقت السقى ويجتنب حبسهن عن الماء حتى لا يمتن[١] عطشا . ويحفظهن من السباع ومن التردى فى آبار الأرض وحفرها .

وتقدمت إليه فيما تردى أن يحتال له فى إخراجه وجبر كسره ، ومن افترسه سبع أن يرسل عليه كلابه تسعى فى إثره حتى تأخذه منه فإذا تمت مدة الرعاية وسلم العبد إليك على ما كنت تقدمت إليه فيه : أعتقته من الرق ومهدت له وأسكنته منازل الأحرار وزوجته ، وبوأت له،من مالك ما يكون له إشباع ومعاش .

فالعبد أعطى سبع جوارح ظواهر وقيل له : هن[٢] عندك أمانة فاحفظهن ولا تستعملهن إلا فيما أذن لك فيه . فالعهد على كل جارحة. فما نهى[٣] عنه بالعين وما نهى عنه باللسان وما نهى عنه باليد وما نهى عنه بالرجل وما نهى عنه بالحلق وما نهى عنه بالفرج . فإذا تركته يتعاطى : سها عن النهى .

فقد رعى بهن فى مرعى السوء . فهو بمنزلة المرعى الذى يقبل وأن يكون طالبا للعلم الذى لا يستغنى عنه ساعة من عمره من علم التقوى ومن علم الورع ومن علم الثقة وعلم عيوب النفس وعلم رياضتها وعلم الوعد والوعيد وعلم النعمة وعلم المنن وعلم الآلاء وعلم المعرفة وعلم المعاملة وعلم التدبير وعلم العبودة وعلم الربوبية وعلم المشيئة وما برز من سابق العلم فهذه صفوة الماء ، ولهذا أوقات بالغداة والعشى .

كما أثنى الله فى تنزيله على طالبيه وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على مجالستهم فقال « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه[٤] » . فإذا ضيع العبد ذلك مات عطشاً لأن الجهل يؤدى إلى موت القلب . فكل نوع من هذه الأنواع جهله العبد : فهو ميت عن ذلك النوع — الضرر به

(١) فى الأصل « حتى يمتن » بسقوط « لا » ,
(٢) فى الاصل « هى » بالإفراد .
(٣) فى الاصل « وما نهى »
(٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

حال على قدر موته عن ذلك ، وإنما يظهر ضرره حين ينكشف الغطاء وتأتى الآخرة بحقائقها ، وأن يكون منتبهاً فى عمره وسيره إلى ربه فإن هذا العدو بالمرصاد ومراصده أكثر من أن توصف . فمتى وجد منه فرصته فوقع فى مخالبه اضطرب حتى يتخلص منه ويفزع إلى ربه بالتوبة فيجبر كسره بالإنابة . فإذا تمت مدته وقدم على ربه وجده قد راعى أمانته وحمده عليها فأعتقه من رق الذنوب وأمكنه من بره وبوأه دار الملوك الأحرار فى جواره.

فالصلاة مقام اعتذار العبد مما كسبت يداه ، منتصباً لربه فى صورة العبيد تذللا وتخشعاً ويلقى بيديه سلماً ، ويكف عن نفسه شهوة الجوارح سمعاً وبصراً ومنطقاً وأخذاً وعطاءاً وطعماً فى سائر الشهوات .

فيبدأ قيامه بالتكبير : وهو التعظيم ، يريد بذلك أن يكون منه كفارة لما فرط منه من التصغير بعبوديته . فإن الله تعالى قال : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل[١] » فهذا ذكر الأوقات . ثم قال : « إن الحسنات يذهبن السيئات[٢] » . فالعبد ذو عيوب وذنوب فهذه سيئاته . فلا تذهب السيئات إلا حسناته وهى تلك الأحوال التى يتردد فيها من صلاته من لدن الافتتاح إلى تحلله بالتسليم . وإنما تصير هذه حسنة بنيته ومراده ، فكلما طهر وصفا مراده كان ذلك الفعل أحسن . فاذا فعل العبد فعلا من هذه الأفعال على غفلة منه كان هو كالسكران الذى يفعل أفعالا هو فى الظاهر محسن لكن العاقل لا يعبأ به لأنه يعلم أنه لا يعقل ما يصنع ولا إرادة له فيه . وإنما يفعل فى سكره على العادة فلو مدح أو أثنى أو جثا على ركبة أو انحنى خضوعاً لم يقع موقع العبودية . فكذلك أهل الغفلة فى تقلبهم فى أحوال الصلاة قربت من تلك المنزلة . فالمنتبه يقوم ومراده الاعتذار مما فرط منه .

(١) الآية ١١٤ من سورة هود .
(٢) الآية ١١٤ من سورة هود .

فيبدأ بالتـكبير يخاطبه فيتحرم به يصير محرماً عن جميع الشهوات كما صار المحرم بالتلبية محرماً عن بعض الشهوات ، فهذه أعم من ذاك .

ثم يقول : سبحانك : تنزيهاً له عما سبق منه من التفريط .

اللهم : يريد انتظام أسمائه كلها . وذلك أن « الله » هو اسمه الذى هو مستولٍ على الأسماء — عالى [١] فى علوه لم يقدر أن يدفعه ولا يجحده أحد من خلقه . ولم يشركه فيه أحد من خلقه . ثم نسب الأسماء إلى الله فقيل أسماء الله فقال « ولله الأسماء الحسنى [٢] » فسائر الأسماء منسوب إلى هذا الإسم لبروز هـذا الإسم فى كنهه على الأسماء وله غور بعيد ملنا عن وصفه للايجاز فيما نحن فيه . فالبر والفاجر انقاد له بهذا الإسم جبراً وطوعاً ، وجحد الفاجر اسم الرحمن ، وسموا بسائر أسمائه ولم يتسموا بهذا والذين قصدوا بالعبادة له شركاء اشتقوا أسماء من من أسمائه فسموا أوثانهم آلهة . فأما لأنفسهم فلم يستجيزوا ذلك فتسموا بالعزيز والرحيم والملك والجبار والعظيم وسائر الأسماء . فهذا اسمه له على الانفراد ممنوع من جميع خلقه .

فالميم فى هذا علامة الجمع كأنه توهم « الله » الذى له جماعة الأسماء الحسنى فذلك الميم الزائد علامة الجمع — جمع الأسماء — وإنما انتصب الميم منها كما انتصب نون قوله « مسلمين وصالحين » فالنون فيها نصب وهو علامة الجمع من أسماء المخلوق وليس هو بنصب ، ولـكنه حرك إلى الفتحة فقيل نصب وأخف الحركات الفتح . وروى عن الخليل قال : هذا الميم الثانى عوض من قوله « يا » فإنهما ميمان — الأولى منهما مجزومة — والثانية مفتوحة . والهاء من قوله « اللهم » مرفوعة عليه وقع الإعراب وقالب هذا الميم فى الـكلمة عليه بنيت الـكلمة كما أن

(١) هكـذا فى الاصل « الصحيح عال » .
(٢) الآية ١٨٠ من سورة الاعراف .

نون المسلمين فى الـكلمة بنيت عليها فنصبوا الميم كما نصبوا النون هناك . وروى لنا عن الحسن البصرى — وأبى رجاء العطاردى عمن بعدهم من أهل العربية . حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر — حدثنا هارون الراسبى عن جعفر عن حيان عن الحسين قال « اللهم » مجتمع الدعاء قال حدثنا هارون عن جعفر عن بكر ابن عبد الله المزنى قال : الميم فيها زائدة .قال وسألت فيها أبا رجاء العطاردى :

هذه الميم ما حالها فى قوله « اللهم » ؟ : قال فيها [١] جماعة سبعين [٢] اسماً من أسمائه . حدثنا أبو عمرو حمد بن نعيم ، حدثنى محمد بن عفان قال ، سمعت النضر ابن شميل قال : من قال: اللهم فقد دعاه بجميع أسمائه كلها .

وأما قوله : « الله أكبر » فعلى توهم أنه أكبر مما وصف به وأثنى عليه .

قال : وبلغنا أن عظماء الملائـكة ومقربيها اجتهدوا فى المبالغة فى الثناء على الله حتى إذا انتهى عهودهم [٢] قال الله تعالى : « أنا أكبر مما وصفتمونى به » .

وأما قوله « سبحانك » فعلى توهم أسبحك سبحانك أى أنزهك وهو على قالب فعلان وهو أتم القوالب وأوفرها كقوله : غفرانك على توهم : اغفر غفرانك والسبحة السرعة إليه » ومنه قوله « وكلٌّ فى فلك يسبحون [٤] » والرجل يسبح فى الماء أى يقطع وهذه الألفاظ بعضها مشتقة من بعض خرجت على قوالب شتى ومعانيها قريبة.وأن العبد إذا أسرع إليه عبودة وانقطع إليه قلباً قد دخل إلى قدسه ونزهه وأصل التنزيه أن تجله وتقدسه وترفعه عن أن يكون منك سوء بين يديه أو من أحد من خلقه فذاك منك تنزيه وتطهير وتقديس فهو فى قولك سبحان خرجت من القوالب مخرج الفعلان . والـكاف [٥] هو كاف الخطاب وهو اسمه

(١) هكـذا فى الاصل : ولعل هنا تقديماً وتأخيراً والأصل « قال جماعة فيها » .
(٢) هكـذا فى الاصل « والصحيح : سبعون بالرفع » .
(٣) لعلها انتهت عهودهم .
(٤) الآية ٤٠ من سورة يس .
(٥) من قوله — « سبحانك » .

المضمر . ثم يقول : اللهم يريد بذلك انتظام جميع الأسماء فى إبراز الميم الزائدة فيه .

وأما قولك : « وبحمدك » والحمد هو صفته والمدح آلاؤه . فـكل واحد منهما ثلاثة أحرف : فالحمد : حاء وميم ودال . والمدح : ميم ودال وحاء .

خولف بين تأليف أحرفها كى يعرف أن هذا مدح الصنع وهذا مدح الآلاء فما كان من ذكر صفته : فهو حمد . وما كان من ذكر آلائه فهو مدح وكلاهما ثناء إلا أنه يتجه على وجهين . قبل ها هنا مدح ليعرف أنه الآلاء — وقبل ها هنا حمد ليعرف أنه صفة . وكلاهما بالأعجمية « همز » وربما عربت فقيل « حمز » .

ومما يحقق ذلك : قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قال العبد « الحمد لله » قال الله تبارك اسمه : أثنى علىّ عبدى » .

فـكأنه يتوهم أسبحك ، أى أنزهك يامن له جماعة الأسماء وبصنعك أنزهك .

وأما قوله تعالى « تبارك اسمك » من البركة وهو القرب على قالب « تفاعل » .

وأما قوله « تعالى جدك » فـكأنه مشتق من الغنى والجدوى . ولا إله غيرك.

ثم يتعوذ فى القراءة — ويتعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم كى لا يحضره فيلقنه فى قراءته مايفسد عليه وهو قوله «وأعوذ بك رب أن يحضرون»[1] .

ثم يبتدىء فى فاتحة الـكتاب — وهى أم القرآن والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وهى مقسومة بينه وبين العبد . فالنصف نصيبه والنصف الآخر نصيب العبد — منه أثنى عليه ثم مجده ثم فوض إليه وألقى بيديه سلماً ثم أقر بالعبودية . ثم سأله المعونة على العبودة ، ثم سأله الهداية للطريق المستقيم فى دينه اليوم وغداً على جسور النيران . ثم ترهب إليه من طريق أهل الغضب وأهل الضلالة ثم ذكر التأمين وذاك منه كالطابع على الـكتاب .

(١) الآية ٩٨ من سورة المؤمنون

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أهل السماء يـؤمنون فمن وافق تأمينه تأمين الملائـكة غفر له » .

فما ظنك بكلمة تبلغ من قدرها أن تستوجب بها الغفران من رب غفور .

ثم تركع تتوهم الخضوع . ثم تسجد تتوهم الخشوع له وهو أكثر من الأول ، والعبد بين يدى نعمة وذنب: فإذا تناول نعمه على الغفلة كان قد جفاها واستصغرها . فبالخضوع فى الركوع يخرج من جفائه : ذلك منه صفة تذهب سيئة . ألا ترى أنه يقول فيها « سبحان ربى العظيم » . يعظمه ليكون بدل ما استصغر . ومما يحقق ذلك أنه أمر أن يخرج منه بذكر الحمد فيقول « سمع الله لمن حمده » لأن هذا الفعل كان فعل حمد .

ويخرج من السجود بالتـكبير ، لأن السجود من أجل الذنب يلقى نفسه بين يديه على مكارم وجهه بالأرض ، فهذا فى صورة غاية الخشوع . قد ألزق نفسه بالأرض . ألا ترى أنه يقول فيها « سبحان ربى الأعلى » لأنه حين أذنب فإنما أطاع هواه . . وكل مطاع فى لغة العرب يسمى ربا — فقال ربى الأعلى « يريد أن ينفى بذلك عن نفسه طاعة الهوى ويخرج منه بالتـكبير لأنه مقام توبة واعتذار : ابتدأ العبد فى بدء أمره بالنعمة ثم ثنى هو بالذنب فأمر بالصلاة على هذا المثال فقد أفسد النعمة وكدرها ثم ثنى فإفساد البدن ـ أن يبدأ بإصلاح ما ابتدىء له فيه بما حدث . فإذا انتهى العدد الذى أمر به قال له : اقعد جاثياً كما يقعد العبد بين يدى سيده فتـكلم بجوامع الخير ووجيز الـكلام واشهد بشهادة الحق . ثم سلم على حافظيك وعلى من يليك إن كان معك غيرك فإنك رجعت من عند السلام بإعطاء السلام وهو الأمان على حافظيك ومن يليك من خلقه .

فبمخاطبته تتحرم ، وبمخاطبة خلقه تخرج منه وتتحلل . فـكأنك وهمت الملـكين ومن يليك أن الدخول فى الصلاة هو وقوف بين يدى السلام وهو « الله »

تبارك اسمه وقوف اعتذار وتنازل عما تجمع الجوارح ، وعن تناول جميع الشهوات فقد سلم الخلق كلهم من الآفة من ناحيتك مادمت فيها . فإذا انقضت خرجت منها بإعطاء الأمان جميع خلقه من الآفة لتشبه أفعالك بعضها بعضاً ، ولئلا تكون هزءاً . فالله سائلك عن وفائها — فاذا قمت بوفائها رجى لك أن تكون صلاتك مقبولة .

* * *

باب جوامع الكلام وتفسيرها

فأما جوامع الكلام فقوله : التحيات لله . . إلى آخره .

وروى لنا أنه أتى بهن جبريل عليه السلام .

حدثنا بذلك الفضل بن محمد — حدثنا أحمد بن محمد بن شريك الحمصى — حدثنا بقية عن أبى أسامة وهو زيد — عن عبد الله بن الحسين : قال : جاءت فهيرة القرشية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها ، وهو يهمهم فيه ، فقالت : أنائم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لست بنائم ولكن عندى جبريل فامكثى ساعة . فلما مكثت قال ما جاء بك يا فهيرة ؟ قالت : أطرفنا مما قال لك جبريل صلوات الله عليه — قال أتانى جبريل فعلمنى التشهد خطبة الصلاة فذكر التحيات لله . . . » إلى آخره .

حدثنا محمد بن أبى مطيع حدثنا عيسى بن يونس عن أبيه عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال . . «علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الصلاة فذكر التحيات لله والصلوات والطيبات . السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

حدثنا يعقوب بن شيبة حدثنا سعد بن سليمان عن ليث بن سعد عن ابن الزبير عن طاووس وسعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن » : فذكر مثله .

حدثنا يحيى بن موسى الحذائى — حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى عن صالح

ابن محمد بن صالح التمار عن أبيه قال : « علمنى القاسم بن محمد قال: علمتنى عائشة قالت علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد فى الصلاة » : فذكر مثله .

قال أبو عبد الله رحمه الله :

فأما تأويل قوله « التحيات لله » : فهو عندنا مأخوذ من الحياة فهو الحى الذى لا يموت . وروى لنا عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال : « كانت لأهل الجاهلية أصنام صغار يمسحون وجوهها ويقولون « لك الحياة الباقية » . فأمروا أن يقولوا « التحيات لله » .

وأما قوله « الصلوات » فهو مأخوذ من التصلية وهو انتصاب العبد بين يدى ربه . ومنه اصطلاء المرء بالنار ، وهو الوقوف والدنو منه مقتبساً :

وأما قوله «الطيبات» فهن الكلمات الخمس اللائى لا يشركه فيهن أحد من خلقه: « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » فكان هذا على توهم العبد أن التحية وجمعها التحيات مما لا يصلح إلا لله . لأن ملك الأشياء بيده ، وأن هذه الكلمات لا تصلح إلا لله ولا يستحقها أحد إلا هو .

وأما قوله « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » فالسلام هو اسم من أسمائه ، والإسم مأخوذ من السمة وكل اسم له فهو دال على صفة أو فعل ، فهو السلام من الآفات كقولك : سالم من الآفات طاهر منزه منه برىء منه قدوس فهذه أشياء قريبة بعضها من بعض ـ إلا أن القوالب اختلفت . فمنها ما خرجت مخرج « فاعل » كقولك رازق ، ومنها على مخرج « فعال » كقولك « تواب » و « خلاق» .

ومنها على مخرج « فعال » كقوله « سلام » ومنها على مخرج « فعول » كقوله « قدُّوس » . ومنها على مخرج « فعيل » كقوله « كريم » .

فهو سلام من الآفات من أن يدركه شىء أو يشبهه شىء أو يضاده شىء

أو يعادله شىء . أما ترى أنه ذكر ليلة القدر فقال « سلام هى [١] » أى سلمت تلك الليلة من الآفات فلا تحدث فيها آفة على الأرض . فوضع هذا الإسم بين عباده ليفشوه بينهم فيكون أماناً لهم فيما بينهم على توهم أنى لك بمكان قد سلمت من الآفات من قبلى لأن المؤمن صار بإيمانه فى جوار الله وذمته وعياذه . حرام دمه وماله وعرضه فإن وفى له بهذا الإيمان إلى أن يقبضه قلباً وقولا وفعلا فقد سقطت عنه الآفات وصار له من اسمه « السلام » أوفر الجاه فوقاه شبهات الدنيا ، وغمرات الموت وهول المطلع وشدائد الآخرة ووسع عليه متقلبه ومهد له وأكرم مآبه وقرّب محله ورفع درجته وتقبل روحه ونعّم جسده ثم حشره إليه فى أكرم كرامة وأغبط حالة كما قال سبحانه « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً [٢] » فقيل يارسول الله :وما الوفد؟ قال : على النجائب عليها رحائل الذهب الأصفر والزمرد الأخضر والياقوت الأحمر : عيس [٣] عليها رحائل الميس وخيول [٤] بلق تطير بأجنحة ، وقد وقاهم أهوال القيامة ونجاهم من سوء الحساب ورقاهم إلى معالى عليين ودرجاتهم فى دار السلام ، هذه صفة أهل الوفاء من المؤمنين بإيمانهم .

فإذا نسبت هذه الدار إلى اسمه « السلام » يوهم العباد أن هذه دار خلقتها : فكما أن الآفاق لا تأخذنى فأنا السلام : فدارى لاتدخلها الآفات وكذلك جميع مافيها حرمته على الآفات أن تلجها ، فأرضها لاتتغير ، وسماؤها لاتنشق ، وبناؤها لا يهن ، ونورها لايخمد ، وضوؤها لايخبو ، وعيونها لاتتكدر ، وأنهارها لاتنقطع ، ومياهها لاتأسن [٥] ، وثمارها لا تتغير ، وكسوتها لا تتدنس ، ونعيمها

---

(١) الآية ٥ من سورة القدر .
(٢) الآية ٨٥ من سورة مريم
(٣) هذه صفة الإبل التى صارت بياضا فى سواد تمشى متبخترة مختالة .
(٤) الخيول البلق هى التى ارتفع التحجيل عندها إلى الفخذين وهو السواد والبياض
(٥) آسن : غير متغير ولا تزول صفته، وهو الماء الصافى العذب .

لا ينفذ ، وصحيحها لا يسقم ،وشبابها لا يهرم ،وحيها لا يموت ، وملكها لا يزول ، وأمانيها لا ترد ، وشهواتها لا تنقضى ، وأفراحها لا تبدل ، وساكنها لا يزعج ، وغنيها لا يفتقر ، وعزيزها لا يذل .

فيصير تحية أهل الجنة فيما بينهم السلام على توهم أن الآفات قد تولت عنهم وتباعدت . وهو قوله « ادخلوها بسلام آمنين[1] » قد أمنتم الآفات أن تعتور أموالكم ومساكنكم ونعيمكم حتى سلمتم منها إذ صرتم فى دارى وجوارى فأنا السلام ودارى السلام ، وتحيتكم فيما بينكم السلام تتباشرون بما فيها تنعما وتفكها. فيا معشر المؤمنين من عبيدى : سلموا بعضكم على بعض فى هذه الحياة على توهم إعلام أحدكم صاحبه أنك سليم منى قلبا وقولا وفعلا — لا أغشك ولا أغل عليك قلباً ولا أنالك لسانا ، ولا أخونك ولا أظلمك ولا تأخذك آفتى . فإن المؤمن حرام الدم : حرام المال :حرام العرض : كحرمة اليوم فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ، والكافر حلال الدم : حلال المال : حلال العرض . فالملتقيان لا يأمنان إلا باظهار السلام، ولذلك وجب على الآخر أن يرد عليه مثله كى يصير فى أمانه هذا الأول وهو أعظمهما أجرا وأولاهما بالله .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله أعطى أمتى ثلاث خصال لم يعطها أحداً قبلهم » :

١ — صفوف الملائكة . ٢ — وتحية أهل الجنة السلام .

٣ — وآمين : إلا ما كان لموسى وهارون .

حدثنا بذلك عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث العنبرى — حدثنى أبى حدثنا رزين عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله :« صفوف الملائكة » فإن هذه التى أعطينا من صفوف الملائكة:

(١) الآية ٤٦ من سورة الحجر .

ألا ترى إلى قوله « وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون[1] » . وكان من قبلنا متفرقين فإن اجتمعوا تقاتلوا بالوجوه .

وأما تحية أهل الجنة ، فهو قوله سبحانه ، « تحيتهم يوم يلقونه سلام[2] » .

فأعطينا هذه . وكان من قبلنا تحيتهم السجود وهو أن ينحنى بعضهم لبعض ، يريد بذلك الخضوع له ويعطيه الأمان بذلك . فرفعت عنا هذه الزلة ، والمؤذية بحمد الله ومنته ، وأعطينا أطيب القول .

قال أبو عبد الله رحمه الله :

وأما قوله « آمين » فإن موسى عليه السلام قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم[3] » قال الله تبارك اسمه « قد أجيبت دعوتكما » فروى فى الخبر أن موسى عليه السلام دعا وأمن هارون عليه السلام : فصيرا التأمين من الدعاء .

ولذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الداعى والمؤمِّن شريكان » وأهل التأمين من شهود القربة ، فلذلك صارا شريكين وصار المؤمن داعياً .

والتحية من الحياة فإن أهل الجنة لم يعطوا شيئاً من النعيم يعدل عندهم دوام الحياة . فإن الحياة بها ينالون سائر النعيم . وحياة الجنة سليمة من الآفات . قد نالهم من سلامة السلام أوفر الحظ فيكونون معه فى داره سالمين من كل آفة . فهم منذ لقاء بعضهم يتباشرون بهذه الكلمة ويتلذذون بذكرها يذكر بعضهم بعضاً. الحياة التى فازوا بها سليمة من الآفات . فالمؤمنون فى هذه الحياة المؤجلة أمروا أن يحيّى بعضهم

(١) الآيتان ١٦٥، ١٦٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب.

(٣) آية ٨٨ من سورة يونس .

بعضاً بهذا السلام على توهم أنه قد أعطى الحياة فإنه لا يؤمن صاحبه أن يتلقاه بآفة فتظهر له هذه الكلمة بقوله : « السلام عليكم » أى أنالك الله من سلامته على معنى أى وقاك الله الآفات فيكون فى ذلك إعطاء الأمان له من نفسه ، أى كما أنى أريد أن ينيلك الله من سلامته فأنت منى سليم ، لأنى إذا دعوت الله لإنسان بالرحمة فقد وهمته أنى أرحمك ، فعلى هذا يخرج قوله . . السلام عليكم » .

والمؤمن ذو حظ من ربه يناله من أسمائه الحظ الأوفى . ألا ترى إلى قوله . . « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (١) » فهو العزيز . ثم أنال رسوله من عنده أوفر الحظ ثم أنال المؤمنين من ذلك فلم يخسس حظوظهم . فكذلك قوله « السلام عليك أيها النبي » أى أنالك الله من سلامته فنزهك من الآفات حياً وميتاً ومبعوثاً يوم القيامة وإن كان قد فعل ذلك فهذا منه تقرباً (٢) إلى الله بهذا السلام . كما أنه وإن صلى عليه فقد يريك إن الصلاة تقرباً إليه بذلك . ودعاؤك له بالرحمة كذلك وإن كان قد رحمه بأوسع الرحمة . وحظه السلام فيما بين العباد عظيم ، والوفاء به أمر جسيم .

وبلغنا أن ابن عمر رضى الله عنه استعان به رجل على غريم له ، فلما صار إلى بابه سلم، الرجل قيل له :أدخل بسلام . فدخلا فسكت ابن عمر . فلما خرج قال له الرجل : إنما جئت بك إليه لتعيننى . قال : أو لم تسمع ما قال ؟ إنه قال : أدخل بسلام . فلم أكن لأوذيه . فعلم ابن عمر أن السلام أمان منه . فلو كان تكلم بشيء يؤذيه — وإن كان حقاً — كان داخلا عليه بغير إذن . لأنه شرط له مع الدخول أن يسلم منه ، وبلغنا أن ابن عمر رضى الله عنه أراد أن يمر فى زقاق : وعجوز جالسة على الطريق — فقال يا أمة الله : أتأذنى لى أن أمر ها هنا ؟ قالت : نعم بسلام ، فرجع

(١) آية ٨ من سورة المنافقون

(٢) فى الأصل هكذا بالنصب

يتهقر ويقول : بسلام بسلام حتى رجع ولم يدخل ، وروى لنا عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه مر بقوم فسلم عليهم فسمع منكراً ، فرجع فقال: ردوا علىّ سلامى ، يريد بذلك أن ينبذ الأمان إليهم على سواء ، ثم يغير المنكر ، لأن فى الأذى بعد إعطائه السلام خفر الذمة .

وروى عن أبى بكر رضى الله عنه قال : « السلام أمان بين العباد » .

حدثنا بذلك محمد بن على الشقيقى . حدثنا أبى عن ابن المبارك حدثنا إسماعيل ابن عياش ، حدثنا أبو سلمة الحمصى عن يحيى بن جابر : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : « السلام أمان الله فى الأرض » .

حدثنا صالح بن محمد ، حدثنا حفص بن سليمان أبو عمر عن الهيثم عن أبى عطية عن مسروق عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « السلام اسم من أسماء الله وضعه الله فى الأرض فأفشوه بينكم » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «سألنى ربى تبارك اسمه فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى» فقلت: لا أدرى يارب فوضع كفه بين يدى حتى وجدت بردها بين كتفى فعلمت كل شيء وبصرته ، ثم قال : « فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ » فقلت فى الكفارات والدرجات . قال : وما الكفارات والدرجات ؟ قلت : ١ — إسباغ الوضوء فى السبرات ٢ — ونقل الأقدام إلى الجماعات . ٣ — وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

وأما الدرجات : ١ — فإطعام الطعام ٢ — وإفشاء السلام ٣ — والصلاة بالليل والناس نيام » .

فصير السلام من الخصال التى ينال بها الدرجات لأنه أمان للعباد . وإنما ينال بها الدرجات ، لأن السلام كان مع الوفاء — كما سلمت عليهم فأعطيتهم الأمان —

سلموا منك قولا وقلباً وفعلا . فلا بقلب حقدت عليهم . ولا بصدر غلت . ولا فششت ، ولا بفعل أضررت . فنلت الدرجات بذلك .

ومعنى قوله : « فيم يختصم الملأ الأعلى » أنه سبقت خصومة فى أبينا آدم صلوات الله عليه — قبل خلقه — فاختصمت الملائـكة فى شأنه حيث قال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها[1] الآيه » .

حدثنا بذلك على بن حجر ، حدثنا عفيف بن سالم البجلى — قال عبد الله ابن يحيى بن أبى كثير عن أبيه ، قال : لما قالت الملائـكة هذه الـكلمة خرجت نار من عند الرب فأحرقت عشرة آلاف ملك . فبلغنا أن من نجا منهم أعرض عنهم الرب تبارك اسمه . فطافوا بالعرش سبع سنين يقولون « لبيك اللهم ، لبيك اعتذاراً إليك . نستغفرك ونتوب إليك » فقال الله تبارك اسمه « إنى أعلم مالا تعلمون » فهذه خصومة .

ثم لما أسكنه الجنة صلوات الله عليه فواقع الخطيئة تحيرت الملائـكة فى أمره فاستعظموا ذلك حتى تاب عليه وقرب منزلته منه —[2] وأنه لم يخرج من رحمة الله مذنباً[3] طرفة عين حتى رده إلى منزلته وغفر له وأخرج من صلبه أحباءه وأولياءه يوم خلقه فأخذ عليهم الميثاق وشهدت الملائـكة تلك العجائب التى رأتها فى ذريته من النور والبهاء ، والمراتب العلية ، والمنازل الرفيعة من درجات الوسائل . ثم لما انتشرت ذريته فى الأرض قالت الملائـكة . . ربنا نحن الصافون المسبحون ومنا الـكرام الـكاتبون ، ومنا الأمناء المقربون ، ومنا ومنا ، وخلقت بنى آدم يأكلون ويشربون وينـكحون ويتنعمون فى الدنيا . وجعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة : قال الله تبارك اسمه « لن أفعل » ثم عادوا المسألتهم مرة أخرى . فقال :

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) بعد قوله قرب منزلته منه توجد زيادة فى الأصل لامكان لها هنا هى وقوله بأن الملائـكة لقوا من الخصام مالقوا من الحرق والإعراض . ثم قال : وأنها لم يخرج من رحمة الله إلى آخر ما ذكره بعد ذلك .

(٣) فى الأصل مذنباً وتائبا ولا معنى لـكلمة تائب هنا مع مذنب .

لن أفعل . . ثم عادوا الثالثة فقال ، لن أجعل ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له . . « كن » . فـكان . هم عبادى المقربون .

قال أبو عبد الله رحمه الله : معناه عندنا — والله أعلم — من قوله عبادى المقربون أى أنى خلقتهم بيدى فنالوا قربتى وكرامتى وهذا شىء لم تنالوه معاشر الملائـكة ، فهذه خصومة ثانية .

ثم إنهم لما اطلعوا على أعمال بنى آدم — قالوا : ياربنا يأكلون رزقك ويعصونك ؟ فقال الله تبارك اسمه : مهلا ملائـكتى فإنـكم تعبدوننى : تنظرون إلى حجتى وسلطانى وعرشى . وهم يعبدوننى من الغيب وراء وراء ، ومعهم الشهوات والشياطين ، فعادوا لما نهوا عنه . فقال : اختاروا منـكم من ينزل إلى الأرض فيحكم بينهم وأركب فيهم الشهوات التى ركبتها فيهم ، فاختاروا من أفضل قبائلهم هاروت وماروت والتمس هابيل فزع إلى الله لما وجد من الشهوات فقال يارب أسألك بحبى لك إلا رددتنى إلى مقامى ؟ فرد إلى مكانه ، وبقى هاروت وماروت فلم يلبثا إلا يسيرا حتى واقعا الخطيئة والتجآ إلى آدم عليه السلام حتى رفع أمرهما . إلى ربه تبارك وتعالى قال فأوحى الله إليه أن خيرهما بين عذاب الدنيا والحـكم لله فى الآخرة — إن شاء عذب وإن شاء عفا ، وبين عذاب الآخرة ، فقالا نختار عذاب الدنيا والحـكم لله يوم القيامة ونرجوه عفوه . فهما فى عذاب دنيا ، منكبين فى بئر بأرض بابل معلقين مكبلين فى الحديد فيما روى لنا فى الخبر .

قال أبو عبد الله رحمه الله . فى كل وقت وجدنا ربنا يذب عنا ويظهر لنا سابق علمه فينا من عظيم المنن وظاهر الحظ . فسأل محمداً صلى الله عليه وسلم فى زمانه ليجدد المنة والنعمة عليه وعلى أمته عنده فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ حيث قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، وحيث قالوا : اجعل لنا الآخرة ، وحيث قالوا : يأكلون رزقك ويعصونك . ثم ألهمه الإجابة فقال : فى الـكفارات والدرجات . ففسرهن ماهن . أى أنهم اختصموا فى شأنـكم يابنى آدم :

أولا : فى إنشائكم من الأرض خلقاً وصورة روحانيين على ما ترون .

والثانية : فى دنياكم التى خلقتها لكم معاشاً ومتعبداً .

والثالثة : فى آخرتكم التى جعلتها دار ملككم ونعيمكم ومتلذذكم بجوارى ومحادثتى وقربى .

فأما فى الخصومة الأولى : فأجبتهم عنكم فقلت « إنى أعلم مالا تعلمون » ، وأصابهم من الحريق ما أصابهم للجرأة التى كانت منهم .

وأما فى الخصومة الثانية : فأجبتهم عنكم فقلت : هم فى الغيب من وراء يعبدوننى مع أثقال الشهوات الجامحة بهم عن نهيى والراكضة بهم إليها ، والمثقلة بهم عن أمرى ومع عدو مسلط عليهم مع جنوده بمكايده ودواهيه يجرى فى عروقهم مجرى الدم منهم — وأنتم فى خلو من هذا كله وقد عافيتكم من هذه الأشياء تنظرون إلى عرشى وسلطانى . والغطاء مكشوف عنكم فاختاروا منكم حتى أنزلهم إليهم فينظرون[1] ما يكون — فكان ما سمعتم من شأنهم من العقوبة بعقب معارضتهم إياكم وذكرتهم أعمالكم . فأبرزت لهم يومئذ بميل نظرى لبنى آدم وصفحى عنهم وحسن تجاوزى .

وأما فى الخصومة الثالثة : حين طمعوا أن تكون لهم الجنة مسكناً وثواباً فأيأستهم من ذلك وآثرتكم عليهم وأبرزت فضلكم ، فأجبتهم أنى خلقتهم بيدى وهم عبادى المقربون فلن أجعل صالح ذريتهم كمن قلت له « كن » فكان .

وأما قوله « فإنى أعلم مالا تعلمون » .. فقد علم أنه سيخرج من صلبه ذووا الجنة رسلا أنبياء مهتدين أمناء مقربين أصفياء ومرزوقين شهداء وبررة أتقياء وأهل ذنوب وخطايا وأشقياء وغير أشقياء .

---

(١) هكذا فى الأصل والصحيح « فينظروا مايكون »

فمن قارف منهم الذنوب والخطايا : فإن من جميل نظرى لهم توافر حظهم منى أن أكفر عنهم الخطايا بهذه الخصال الثلاث .

١ — إسباغ الوضوء إلى السبرات .

٢ — ونقل الأقدام إلى الجماعات .

٣ — وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

وأرقيهم الدرجات بالخصال الثلاث :

١ — إطعام الطعام .

٢ — وإفشاء السلام .

٣ — والصلاة بالليل والناس نيام .

فألحقهم بالمقربين الأصفياء ، والبررة الأتقياء ، ليعلموا أن من كان بديع فطرتى والمؤثر لخلقه بيدى ، والذى توليت تسويته ، ونفخت الروح فيه من عندى ونحلته أعلى الصور وأفضلها وأحسن التقويم وأعدلها : مقدم على جميع خلقى : فأظهروا له فضله بأن تقعوا له ساجدين معاشر ملائكتى . فأمرهم بالوقوع له فى صورة الساجدين إبرازاً لفضيلته وإظهاراً لأثرته . ثم ذكرهم فى تنزيله وقال : « أولئك هم خير البرية »[1]

نخيرهم خير البرية ، وشرهم شر البرية . وكذلك كل شىء فى الارتفاع هو أعلى ففى خلال السقوط هو أخس وأذهب سفالا .

وأن مما أعلم مما لا تعلمون : أنه سيخرج منكم يا ملائكتى من يعادينى من أجله ويحسده على فضلى ويبارزنى بالعداوة سخطاً لفعلى وناظراً إلى قضائى بعين الجور — فيشقى فى جنبه أبداً ، وأنه سيميل معه من ذريته هذا الممتن عليه بهذه المنة

---

(١) الآية ٧ من سورة البينة :

أكثرهم فيكونون من شيعته وحزبه وأوليائه ويتركون ولايتى إعراضاً عنى « فأولئك هم شر البرية » .

فوعزتى لأملأنّ جهنم منهم ومن شيعته وتبعه وذريته وذرية هذا المؤثر بالكرامة لئلا يلج دارى وحظائر قدسى إلا المقدسون الذين تزينوا للجنة بزينة العبودة . فكل عبد فى دار الدنيا له عبودة عند مولاه، وعلى قدر مولاه يرى عليه من الزى والبشارة والطلاوة على قدر زى مولاه يسود العبد بين العبيد . فما ظنكم بعبيدى يوم مقدمهم علىّ ماذا يأخذهم من الطلاوة والزى والبشارة ؟ وكيف يكون سؤددهم . فهذه خصومة الملأ الأعلى . فأعلمهم أن سيكون فيه هذه الأشياء ، وأن صلاح من فيها وإن قلوا يغالب فساد الآخرين وإن كثروا . وهو قوله : « ولولا دفع الله الناس بعضَهم ببعضٍ لفسدت الأرض »[1]

فيدفع بأوليائه من أعدائه ، وبالمطيعين عنه من لا يطيعون ، وبالمجاهدين عنه الناصرين لحقه عن المجاهدين عليه الخاذلين لحقه ، ولولا حرمة هؤلاء لفسدت الأرض أى بتعميم العذاب . وقد تجد هذا متعارفا من شأن العباد : أن الرجل يسقى أرضاً مشاكة من أجل غصن آس[2] قد نبت فيه .

فاختصم الملأ الأعلى فى شأن فسادهم وعصيانهم وهم لا يعلمون أنه سيكون فى بنى آدم هذه الخصال الست التى يعم صلاحها ويعلو شرف منازل أهلها عند الله بها ، وسنذكر عوز هذه الخصال الست وشرفها على الإيجاز .

١ — وأما الكفارات[3] الثلاث : —

فإنما خلق المؤمن طاهراً طيباً طاب قلبه بنور الله وطاب صدره بالإسلام ،

---

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة

(٢) وهو نبت طيب الرائحة كما يقال « من أجل الورد يشرب العليق » .

(٣) الأحسن « فأما الكفارات »

وطاب لسانه بالطيب من القول وهو « لا إله إلا الله » وطاب جسده بطاعة الله وأدركته دولة السعادة من مولاه ووفر حظه من ربه اللطيف به ، فهدى إلى الطيب من القول ، وهدى إلى صراط الحميد .

فعرج يميناً وشمالا فى الشريعة فتدنس فصار البهاء والطلاوة مفقود الغشاوة والدنس فلما احتمل مؤونة البرد وآذاه : بإسباغ الوضوء كفر ذلك الدنس : والكفر « الغطاء » تقول فى اللغة « كفرته » أى غطيته . فإذا غطى ذلك الدنس صارت أطرافه بهية وضيئة . واسم الوضوء مشتقة من التوضئة يقال « وضؤ الرجل » فهو وضىء إذا كان لوجهه بريق من الحسن . وبهؤ الرجل فهو بهى « إذا كان مع البريق جلالة .

فإذا غسل أطرافه ذهب دنس الآثام وغباره واستنار وجهه .

ألا ترى أن بعض التابعين كان لا يتمندل فى الوضوء ويقول: هو أنور للوجه. وأن هذه الأمة يوم القيامة أعزاء من السجود — محجلون من آثار الوضوء — يعرفون بها فى سائر الأمم .

٢ — وأما نقل الأقدام إلى الجماعات :

فهو متوجه إلى ربه معتذر مما نزل به . فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكتب بكل قدم حسنة وتمحى عنه سيئة » ! يرى أنه من أجل التوجه إلى ربه معتذراً فاراً من نفسه إلى ربه فلا يخطو خطوة إلا وهو متوجه فار ، فبالتوجه تكتب حسنة ، وبالفرار تمحى سيئة : قد جمع الأمرين فى قدم واحد .

وفيما يروى عن الله تبارك اسمه أنه قال : « يا ابن آدم : امش إلىّ أهرول إليك » فما ظنك بمن يكون فى السرعة إلى عبده بالتفضل عليه وتقريب منزلته هكذا ؟ ..

٣ — وأما فى انتظار الصلاة بعد الصلاة :

فهو دوامك على الإعتذار ، لأنك متى عملت عملا ثم انتظرت مجىء وقته لتعمل مثله فأنت دائم فى ذلك العمل لم ينقطع عنك ، لأنك لم تقطعه إنما قطع عليك — جعل له نهاية إذا بلغتها خرجت منها .

فهذه الخصال تكفِّر عنك سيئاتك التى بعدت بها من ربك وهو قوله : « إن الحسنات يُذْهِبن السيئات »[1] .

وأما الثلاث اللاتى ترقى بهنّ فى الدرجات قرباً إلى ربك :

١ — فإطعام الطعام .

٢ — وإفشاء السلام .

٣ — والصلاة بالليل والناس نيام .

قال أبو عبد الله رحمه الله :

١ — فأما إطعام الطعام « فهو فعل الله تبارك اسمه ، لأن الخلق عيال الله . فهو يعولهم ويتكفل بأرزاقهم . فإذا قام عبد بإطعام عبيده فإنما يطعم عن الله ما يكفل بعبيده ، فما ظنك بعبد من عبيد أهل الدنيا يعمل عمل سيده ويعمل عنه ليؤدى عنه كفالاته كيف محله عنده من بين العبيد ؟ فهذا فعل[2] استأثر الله به وارتضاه لنفسه فيظهر منه غناه ومجده .

ثم أجراه على أيدى أنبيائه وأوليائه وهو من أشرف الأخلاق وفيه إقامة الأرواح فى الأبدان وسلامة المهج . فأوفرهم حظاً من مجده وغناه ليجدوا فى أرضه وتظهر عليهم بهجة الغنى ، وأوفرهم نصيباً من القيام بهذه الخصلة والدوام عليها ،

---

(١) الآية ١١٤ من سورة هود .
(٢) يقصد به « الإطعام » .

وأكرم الله خليله إبراهيم وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك : فكان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يدعى « أبا الذبيح » وكان محمد صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغد ولا يواجه سائلا .

فأقربهم وسيلة وأقربهم درجة أفعالهم لهذا وأخلاقهم بهذا . فأما الخلق فهو السخاء : وأما فعل هذا الخلق فهو الإطعام .

٢ — وأما إفشاء السلام :

فإن السلام قد أظهره الله وأعلم خلقه أنى أنا السلام ، وقد سلم من آفة جورى وظلمى العباد . والعدل متصف لخلق والفضل لى ، والجور منفى عنى ، والعدل قضائى ، والفضل جمالى ، والحكمة تدبيرى ، ولا إله غيرى . فإذا أفشى العبد هذا من نفسه فى عبيده اقتدى بربه يوهم العباد أنكم فى أعلى هذه المنزلة قد سلمتم من جورى وبحكم العدل الذى أنزله بيننا مستقرى ومقامى ، وبالفضل عليكم منقطما وعمالتى متحملا فى أسبابى وناظراً إلى تدبيره فيكم ملقياً بيدى سلما :

٣ — وأما الصلاة بالليل والناس نيام :

فهو انتصاب العبد بين يدى خالقه فى تلك الخلوات فى جوف الليل فينال خلوته ويقرب درجته ، وذلك قوله لداود عليه السلام « ياداود : قم فى جوف الليل حتى تخلو وأخلو بك . ثم ارفع إلىّ حوائجك فإنه من قام لى أول الليل فقد قام ، ومن قام لى فى آخر الليل فإنه لم يقم بعد » .

فذاك فى جوف الليل . . ألا ترى أنه قال : « والصلاة بالليل والناس نيام » . فقد وصف الحال والوقت .

فبالخصال الثلاث يخرج من السيئات فيطهر . فيصلح للطاهر القدوس فيرقى إليه فى الدرجات بالخصال الثلاث البواقى .

فهذا ما فهمنا من قوله : « السلام عليك أيها النبى » .

وأما رحمته : فهو عطاؤه . وأما بركاته فهو قربانه .

وكذلك قوله : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » :

قال أبو عبد الله رحمه الله : وقد جاءتنا أحاديث فى تفسير التحيات عن الحسن البصرى وغيره — حسبتها موضوعة لا أصل لها ، وتوجهوا بها على التجويز على قدر ما تفعله العامة ليكون لهم به متعلق .

فروى عنه[1] قوله : « التحيات لله — قال الملك لله والصلوات : قال : الخمس المكتوبات ، والطيبات شهادة ألا إله إلا الله . السلام عليك أيها النبى قال : لله شاهد عليك أيها النبى بأنك بلغت الرسالة ونصحت للأمة . السلام علينا : الله شاهد علينا بأنا قبلنا الرسالة وأجبنا .

فهذا غير مستقيم ومن التأويل ضعيف . فأما قوله التحيات : قال الملك وكيف تكون التحية للملك وهى مأخوذة منه الحياة ، والتحيات كلمة جماعة والصلوات والطيبات وهى شهادة الإخلاص والكلمة واحدة وأخرجت مخرج الجمع . وقوله: السلام عليك أيها النبىّ — الله شاهد عليك . فهو يذكر الله شاهد عليك . فأى دعوة لحقت الرسول صلى الله عليه وسلم منا فيكون لنا بها قربة ؟ وكيف يتفق هذا القول « الله شاهد عليه » مع قوله : « ورحمة الله وبركاته » فهذا يستحيل . وقوله : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » أى : الله شاهد علينا وعلى عباد الله الصالحين بأنا قبلنا الرسالة وأجبنا . فماذا يكون فى هذا ؟

وهذا حديث الأعمش عن شقيق عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن التحيات قال: «فإذا قال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أصابت كل عبد صالح لله فى السماء والأرض » . فعلى معنى ما روى عن الحسن البصرى : أى شىء يصيب كل عبد من هذا القول لو كان معناه ما ذكر ؟ فهذا الذى جاءنا

(١) عن الحسن البصرى .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود يبطل هذا المعنى الذى تأولوه ، ويكشف عن استحالته . ويحقق ما قلنا أن ينال كل عبد صالح من ذلك السلام الذى للعباد منه من الحظ من سلامى السلام ، فهذا من القائل دعاء لكل عبد صالح . فإذا انتهى المصلى إلى الجلوس كالعبد الضرع المتذلل لمولاه ثم يتكلم بهذه الكلمة ثم سأل حاجته قال الله تبارك اسمه: «فإذا فرغت فانصب[1] » . فإحدى تأويلاته إذا فرغت أى إذا صرت فارغا من وبال الذنوب بالركوع ومن وبال الذنوب بالسجود فانصب يديك كالمتعرض لى جاثيا على ركبتيك ، ثم ، ارغب أى ارفع حوائجك برغبته . وأما الرغبة عندنا فمن طلوع الآمال من النفس بك ثم تنقطع الأسباب وتقرب الآمال من قلبك فلا يبقى إلا ذكره . فتلك الرغبة .

ومما يحقق ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الرغب شؤم » وهو الأكل العنيف المتدارك بعضه على أثر بعض حتى كأنه يلتهمه من الحرص .

ثم تسلم على من يليك من الحفظة والخلق فإنك أمرت أن تخرج من صلاتك إلى الخلق بسلام، لأنك كنت مقبلا على السلام تناجيه وتظهر له العبودة ، وتعتذر إليه من الآفات . فلما فرغت أعطيت الخلق من الملائكة والآدميين السلام وهو الأمان بألا تؤذيهم . فتفتتح صلاتك بمناجاتك بالتكبير له — وتخرج منها بمخاطبته الخلق بإعطائهم الأمان وهو السلام حتى يكون قطعاً لما كانت فيه . فهذا شأن الصلاة .

(١) الآية ٧ من سورة الشرح .

عدد ركعات الصلاة

فأما العدد :

فإنه جعل لكل ركعة سجدتان . فالركعة لجفاء النعمة واستصغارها إذ تفاوتها على غفلة . والسجدتان [١] للذنب . لأن الذنب من وجهين : وجه ظلم النفس ، ووجه ظلم الخلق . فالخضوع مرة — والخشوع مرتين .

وأما عدد الصلاة : —

فبدء الصلاة كانت ركعتين ثم زيد فيها . فالنعمة على ضربين :

١ — نعمة الدين

٢ — ونعمة الدنيا ، فجفوت كلتا النعمتين فركعت ركعتين ، وأذنبت فأتيت أربعة أشياء :

١ — جزاء الرب　　٢ — وأذى المسكين

٣ — وظلما للحق　　٤ — وظلما للنفس .

فهما ركعتان فى أربع [٢] سجدات . أما الظهر والعصر: فزيد فيهما ركعتان لقوله « وأدبار السجود [٣] » . فحرص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلوا فى دبر كل صلاة لهذه الآية توفيراً لما نقص وأخذاً بما حث الله عليه وندب إليه ففرض عليهم أربعا لما استمروا فيه. كذلك حدثنا به الجارود عن عمر بن هارون عن أبى بكر بن مريم الغسانى الحكيم بن عمير أبى الأحوص قال :

« كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد بذلك »

قال أبو عبد الله رحمه الله : ومما يحقق ذلك أنه إن شاء قرأ فى الأخريين [٤] وإن شاء سكت .

(١) فى الأصل « والسجدتين »
(٢) فى الأصل « أربعة سجدات »
(٣) الآية ٤٠ من سورة ق
(٤) أى الركعتين الأخيرتين من الظهر أو العصر .

وأما المغرب : فزيد فيها ركعة لتكون وتر صلاة النهار فيرفع الله صلوات النهار ثلاث عشرة ركعة فإنه وتر يحب الوتر .

وزيد فى صلاة العشاء ركعتين وضم إليها ثلاثا لترفع إليه سبعا فتكون وترا .

ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله زادكم صلاة وهى الوتر» حدثنا بذلك قتيبة بن سعيد ، حدثنا أبى لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زادكم صلاة وهى الوتر » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأخبر أنها من عند الله تبارك اسمه . ومن هاهنا رأى أبو حنيفة رحمه الله : أن الوتر فريضة ، لأنه وجد لها خصالا أربعا باين بهن من السنن .

١ — قوله إن الله زادكم فأخبر أنه من عنده

٢ — والثانية أنه قال زادكم ، والزيادة فى شىء من الشىء لاحقة به .

٣ — وجعل لها وقتاً إلى طلوع الفجر فى الحديث المروى وليس للسنة وقت .

٤ — وأمر بإعادتها والسنّة لاتعاد . ثم سن القنوت فيها فى آخرها لأن تلك الركعة أحب الركعات إلى الله فيما نرى ، لأن الوترية فيها واختار من السور [١] للقراءة فيها :

١ — سبح اسم ربك الأعلى .

٢ — وقل يا أيها الكافرون .

٣ — وقل هو الله أحد .

فأما سورة سبح : فإنه حدثنا عبد الكريم بن عبد الله السكرى [٢] أبى على بن الحسين عن إسرائيل عن ثوير عن أبيه عن علىّ رضى الله عنه قال :

(١) فى الأصل من السورة .
(٢) هكذا فى الأصل والصحيح « أبو » بالرفع

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سورة سبح اسم ربك الأعلى فأما العلة فيما ظهر لنا : أن تلك سورة أبيه إبراهيم عليه السلام وأنه فى التوراة . ألا ترى إلى قوله « إن هذا لفى الصحف الأولى : صحف إبراهيم وموسى » (١) .

وروى عن أبى جعفر محمدبن على أنه قال : لو يعلم الناس ما فى سورة سبح اسم ربك الأعلى — لقرءوها مرات . ولطلب معانيها غور بعيد يدل مفتتحها على مافيها من قوله « سبح اسم ربك الأعلى » فوجدنا هذا التسبيح على ثلاثة أضرب : وأصل التسبيح للعيوب . وهو تنزيه له من عيوب العباد فقال « فسبح بحمد ربك(٢) » فهذا تنزيه بالحمد وهو ضرب واحد .

وقال « فسبح باسم ربك(٣) » فهذا تنزيه بالإسم . وهو ضرب آخر .

فأمر فى هذين أن ينزه ربه بحمده وباسمه . أمر أن يسبح الإسم أى ينزهه ففى تنزيه الرب بالحمد وبالإسم معنى النفس . وليس فى تنزيه الإسم معنى النفس . هذا مقام الأمناء العارفين من السادة من الأولياء وأهل جذبة الله المختصين .

وفى شرح هذا قطع لما نحن فيه لأن الأغير أوله من البحر لا من الوادى . فجمع فى الوتر سورة الله بما فيها من الخير والعجائب مع سورة البراءة من الشرك ومع سورة الإخلاص لله تعالى . ثم القنوت له بالرغبة فى المسألة والافتقار بما لديه فأوتر بها صلاة الليل .

فتلك عشرون ركعة ثم قال فى تنزيله « إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين » (٤)
فروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال « كفى بالصلوات الخمس اجتهادا » يعنى فى العبادة كأن معناه فى صلاة الجمعة بلاغا من الزاد فى المفازة إلى موافاة الحشر لمن عبد الله تعالى :

(١) الآية ١٨، ١٩ من سورة الأعلى .
(٢) الآية ٣ من سورة النصر .
(٣) الآية ٧٤ من سورة الواقعة وكذلك من الآية ٩٦ من سورة الواقعة.
(٤) الآية ١٠٦ من سورة الأنبياء .

تفسير المواقيت

وأما شأن المواقيت : فإنا توخينا عللها فوجدنا مواقيت الصلاة فيهن ظهور الآيات وقد قال فى تنزيله « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » (١) فكان ظهور الآيات منه تنبيها للمؤمنين ، لأنهم لايرونه وقد آمنوا به غيبا . فليس تحقق وقد حق على من آمن به غيبا ثم ضيع أمره وتخطى نهيه ثم ظهرت آية من آياته ألا يفزع إلى القيام بين يديه معتذرا فى صورة العبيد مع المسكنة قائما والخضوع راكعا ، والخشوع ساجداً ، والإفتقار جاثيا .

ألا ترى أن الشمس والقمر آيتان من آياته . فإذا حدث الكسوف فيهما جرت السنة بأن يفزع إلى الصلاة . فهذا العبد يذنب ويسهو ويخطىء وهو فى الغيب لايراه . فإذا ظهرت آية من آياته فقيل له قم إلى ربك فاعتذر من سوء ماجنت يداك وتنصل إليه منه . فإنك إذا قعدت فكأنك غير مكترث لما ظهر من آياته وغير مبال بما حدث .

فمن ظهور الآية : انفجار الصبح وقد قال « وجعلنا الليل والنهار آيتين » (٢) فالنهار خلق عظيم يطبق فى ساحة الأفق كله شرقا وغربا .

فإذا كان فى الكسوف يفزع إلى الصلاة وهو حدث فى الآية، فظهور الآية أعظم من ظهور الحدث فى الآية . وإنما افتقدوه من قلوبهم فلم يستعظموا ظهوره لأنهم اعتادوا وأنسوا به وكل شىء طالت صحبتك معه تصرم تعظيمك له .

فبدء الصبح إذا انفجر هو من نور الشمس . ألا ترى أنه يبدو أولا : بياض ثم حمرة . ثم نور . ثم قرص . ثم شعاع . ثم شرق . ثم ضحى . ثم استواء . ثم

(١) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٢ من سورة الإسراء .

زوال . ثم جرى . ثم عصر . ثم عشى . ثم هبوط . ثم حدور . ثم طفول[١] . ثم غروب . ثم نور . ثم شفق[٢] .

وإنما سمى ليلا وهو على قالب « فعل » لأنه يتلألأ . وهو قطعة منفصلة من حجاب الظلمة فيما روى . فيرسل على أهل الأرض بمقدار حتى يطبق . فمن شأنه أن يريك الأشياء . فتقول : هو هو : ثم يشبه عليك الأشياء حتى تقول : لا لا : لأنه ممزوج بالضوء فهو يتلألأ بنفسه وهو يلألئك وكذلك اللؤلؤ : هو مشتق من هذا وهو على قالب « فعفع » ومن شأنه أنك تنظر إليه ثم تراه ثانياً فيتراءى لك على غير ما رأيته فيشتبه عليك حتى تقول هو هو . ثم تقول : لا لا : وأهل البصر بالجوهر يقولون فيما تعارفوه فيما بينهم : إن كل مرة تنظر إلى اللؤلؤ يتراءى لك فيه مالم يكن : إما دون ما رأيته أو أنفس مما رأيته .

وإنما سمى نهاراً لأنه ينهر إلى تسييل ذلك النور الذى بدا وأصله من الشمس فيما نرى والله أعلم .

وكذلك نجد فى الخبر : أن الشمس إذا سارت من مسجدها تحت العرش وهو مجراها لتطلع بدأ النور . فكلما دنت من الأرض إزداد النور وهى خارجة من القبة حتى إذا دنت من قطر الأرض صارت جمرة حتى إذا خرجت من الكوة وهى مطلعها بدا القرص .

وإنما صار الكسوف يفزع منه أيضاً لعلة أخرى وذلك أن الطلوع والسير هو تدبير الله لعباده فى أرضه دبر لهم مصالحهم فى معاشهم وجعلها نعمة فلا تفزع لطلوعها . والكسوف سلب النعمة، ففيه ظهور الكفران للنعمة ومعاينة الرب لعباده

(١) يقال طفلت الشمس عند الغروب .

(٢) هذا الترتيب الدقيق لايصدر إلا عن رجل درس الفلك وعرف أدوار الشمس ومستقرها من أبراجها وسيرها فى مدارها — مما يدلك على أن الحكيم الترمذى قد اشتغل بدراسة علم الفلك مدة طويلة .

ففى ظهور مبتدأ الشمس وهو فجر الصبح آية عظيمة عظيم شأنها . ألا ترى أن الله أقسم بها فقال : « والفجر وليال عشر[١] » ثم قال فى آية أخرى . « والصبح إذا أسفر »[٢]. وان نجده أقسم بالكسوف فقال : والشمس إذا انكسفت فقيل لهذا المذنب الغافل المخلط صدقه بكذبه وقد ظهرت آية من سلطانه : فقم إلى مقام الاعتذار

فالعاقل يستوحش أن يستقر قراراً أو يشتغل بشىء سوى القيام بين يديه معتذراً . وإن أحببت أن تعلم وحشة ذلك فاعتبر بملوك الدنيا ولله المثل الأعلى فما ظنك بملك قد جفوته فساء فعلك لديه ومعاملتك إياه فرأيته قد أقبل — أليس فى أوائل ما تقبل أوائل جيوشه تتأهب وتستعد للقيام إليه مبجلا لمجيئه معظما لإقباله ومعجلا فى أخذ زينتك له بكل ما تقدر عليه ؟ حتى إذا تقدمت إليه فى تلك الزينة وجدك وقد بادرت إقباله بالتهيؤ ، والاستعداد تعظيما له — تكرم عليك وتفضل وأنالك على قدره فى مملكته .

وإن لم تفعل ذلك وتغافلت عن إقباله فأقبلت جيوشه وانفضت وأقبل بنفسه ماراً بك فما رفعت له رأسك اشتغالا بنفسك فرآك على تلك الحال — إزدرى بك وتهاون بخطرك وقصر بك عن المراتب فإن رفع سؤله عنك وحرمك من خيره ومعروفه ، فغير مستنكر .

وظهور الآية هو أوائل جيوشه حتى إذا كان وقت الصلاة فهو وقت إقباله على عباده واطلاعه عليهم وكشف الحجاب فيما بينه وبينهم وإهطال الرحمة عليهم وشهود رغباتهم ورهباتهم وهو قوله : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً »[١] .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شهدها الله وملائكته »

(١) الآية ١ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٣٤ من سورة المدثر .

(٣) الآية ٧٨ من سورة الإسراء .

فإذا كانت الملوك فى الدنيا ينزلون الرعية هذه المنازل من الوجهين الذى وصفنا . فما ظنك برب العالمين إذا وجد عبده يعظم أمره ويقوم فى الإعداد وأخذ الأهب لإقباله وإطلاعه ماذا يكون منه من رفضه وخذلانه وحط منزلته وإبعاده من قربه ؟ .

فلما بدأ الصبح أمر بأن يقوم معتذراً لما فرط منه ثم جعلت له المدة إلى طلوع الشمس لعلله : لأن ابن آدم ضعيف وذو علل ينام فيبقى عنه سهو أو يشغله البول والحاجة العارضة فهو فى ضرورة . فالسابق إليها يلحق السابقين المقربين ، وأهل العلل فى سعة من ربهم ولذلك جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول الوقت رضوان الله وآخره عفوه » .

تفسير رضوان الله وعفوه فى أول الوقت وآخره

قال أبو عبد الله رحمه الله : فالرضوان هو غاية الرضا . خرجت من اللغة مخرج « فعلان » وهو القالب البارز على القوالب فى الوقارة والأشباع : تقول هذا الرجل عارٍ إذا كان خلق الثياب متمزقا وهو قول النابغة :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى ‏ ‏ ‏ على خوف تظن بى الظنونا

فإذا كان بجلده قيل عريان ومنه قوله هذا [1] .

ثم قيل رحمان فهذا الإسم فى شأن الرحمة أوفر وأشبع . ألا ترى أنه لا يتسمى بهذا الإسم أحد سواه . فكذلك الرضوان .

ومما يحقق ذلك ما حدثنا به الجارود عن وكيع عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : « يقال لأهل الجنة هل بقى لكم شيء لم تنالوه ؟ فيقولون : يا ربنا قد أسكنتنا فى مثل هذه النعمة فى جوارك فما بقى لنا شيء [2] فيقول لهم بلى : قد بقى شيء لم تنالوه — رضوانى — فيعظمون ذلك أو كما قال »

وأما قوله « عفو الله » فهو بفضل الله ومنته على عباده . تقول العرب « عفا الشيء » إذا طال ومنه قوله « أعف اللحية » ومنه قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو [3] » أى الفضل من مالك .

فالعبد إذا أمر بأمر لزمه القيام به ساعة أمره . فإذا مدله فى الوقت فذلك بفضل الله عليه — لم يكن للعبد ذلك — فأفضل عليه ربه وطال عليه . . وهو عفوه فكان معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه إذا أدى أهل الفرائض

(١) يقصد بقوله : رضوان: حيث أنه غاية الرضا — كما أن عريان غاية التجرد من الثياب خلقا او غيره . فكلا القالبين بلغا غايتهما ، فتقول راض : إذا كان هناك بعض الرضا ـ وتقول رضوان إذا كان هناك غاية الرضا . وتقول عارٍ إذا كان هناك بعض الثياب وتقول عريان إذا كان هناك غاية العرى .

(٢) سقطت « شيء » من الأصل ‏ ‏ ‏ (٣) الآية ٢١٩ من سورة البقرة .

فرائضهم : فالسابق إليها فى أول وقتها مؤدى [١] ذلك الفرض فى وقت رضوان الله » أى قد رضى الله عنه هذا الفعل بغاية الرضوان ـ ، والذى أداه فى آخر الوقت قبل الله منه تفضلا وتكرما ، لأنه قد رحم فمد له فى الوقت .

وكذلك تجد حالة العبيد عند مواليهم فى دار الدنيا ـ أرضاهم عند سيده ، وأحظاهم لديه ـ من بادر بتوفير وظيفته ووقرها وصححها وانتقدها وأرجح فى وزنها ثم أتبعها بهدية على أثرها عند صبيحة الهلال فإذا كان هذا فعله فعما قليل يسود العبد ويحل منه بالمرتبة العالية . هذا لعمال الله أهل الولاية فأما العبيد الخدم فإنهم يقدمون ويؤخرون : التماس موافقة الله فى جميع الأمور ـ [٢] ليس فى الصلاة فقط وإنما الصلاة خصلة من خصال الشريعة . وليس من وافق الله فى جميع أموره كمن وافقه فى أمر واحد ، أولئك السابقون قلبا المقربون مرتبة فى الدنيا وفى القيامة وفى دار السلام وفى دار الزيادة .

فالناس فى أول الوقت إلى النصف منه ـ فإذا جاوز النصف فهو آخر الوقت كما أنك تقول إلى قرب الزوال أول النهار ـ فإذا زالت قلت آخر النهار إلى غروب الشمس : وأسبقهم إلى أولها أقربهم وسيلة .

فإذا زالت الشمس فهو سجودها من حين تزول إلى أن تغرب فتسجد تحت العرش إذا خرجت من حدور القبة فمن أول ماتزول هو كالركوع لها . ألا ترى إلى قوله : « والشمس تجرى لمستقر لها [٣] » أى تستقر ساجدة تحت العرش ففى جريها من الإستواء للسجود آية عظيمة فهى أعظم من الكسوف فأمرت أن تقوم عند ظهورها . وإنما سجدت لأن الشمس مأمورة بالطلوع أن تكون ضياء للعالمين وتربية لمعاشهم وقوام أمورهم فهى نعمة من الله على عباده عظيم [٤] خطرها .

(١) هكذا فى الأصل والصحيح مؤد .
(٢) سقطت « ليس » من الأصل
(٣) الآية ٣٨ من سورة يس
(٤) فى الأصل عظيمة خطرها ه

فلما طلعت سجد لها العبيد من دون الله .

فبلغنا عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كلما أتت على طلوعها ساعة من النهار فتح باب من النار حتى تفتح الأبواب السبعة كلها عند الاستواء وتزجر النيران زجرة لشدة غضب الله فتسجد جهنم وتتلظى حريقها وتغلق أبواب الرحمة فلذلك حرم على المؤمن الصلاة فى ذلك الوقت لأن الرب كريم يستحى أن يخيب عبده عند الإقبال عليه . وليس ذلك وقت نزول الرحمة ولا وقت النوال فلما تمت الساعة السادسة كان ذلك وقت قد بلغت الشمس مستوى السماء ثم زالت عن المستوى فى الساعة السابعة فأهوت للسجود لأن الكفار سجدوا لها فى ذلك الوقت من دون الله وذاك وقت تمام النعمة على عبيده . إذ أضاءت لجميع أهل الدنيا على سبيل الاستواء فلما عمت النعمة أهل الأرض أظهروا كفرانها . ووقعت الخليقة فى ذلك ، وجرت الشمس عن الإستواء للسجود وسجد له كل شىء وسبح له كل شىء .

ومما يحقق ذلك ما حدثنا عمر بن أبى عمر حدثنا عمران بن ميسرة عن أبى لهيعة عن يحيى البكاء عن ابن عمر عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فاته جزؤه من الليل فليقرأ فى أربع ركعات قبل الظهر فإنها تعدل بصلاة السحر ، وهى ساعة يسبح الله فيها كل شىء »
حدثنا عيسى بن أحمد حدثنا على بن عاصم قال أملاه علىّ يحيى البكاء عن عبد الله بن عمر عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فالسابق إليها فى أول وقتها عند الزوال إنما يستقبل الرحمة العظمى وذلك بمنزلة نهر جار [١] كثير الماء وواد [٢] من الأودية احتبس ساعة من النهار فصار بحرا فإذا رفع الحاجز فجرى كان سيلا فالسيل يطهر

(١) فى الأصل جارى
(٢) فى الأصل وادى .

المزابل ويقلع الأشجار ويرفع البنيان لقوة جريه ، فما ظنك بمن يستقبل سيل الرحمة كيف تطهر تلك المزابل التي في صدره وكيف يقلع تلك الأشجار التي شوكها كالخناجر وهي الأخلاق السيئة ؟ وكيف يهدم ذلك البنيان وهي عادات السوء من أفعاله وذنوبه والسيل إذا أتت عليه ساعة صار واديا وإذا أتت عليه أخرى صار نهرا وإذا أتت عليه ساعة أخرى صار جدولا . فبعد تفاوت ما بين نهر صار سيلا فانبثق وجرى فاستقبله بأخذ الحظ منه ناس قليل من أمصار المسلمين ، وبين جدول صغير ليست له من القوة ما يجرى لبعده استقبله بعدد لا يحصى من أمصار المسلمين كلها فتزاحموا عليه . فكم يحصل لك عند تناولها معهم من الجدول من الحظ في ذلك العدد الكثير ؟

فإذا هبطت الشمس من مستوى القبة للسجود فتلك آية أخرى ، لأنها عصرت فسميت الظهر لأنها في ظهر القبة فزالت ومالت للسجود ثم لما خرجت من حد المستوى إلى الهبوط عصرت فأهوت الحدور فقيل « عصر » ولما غربت فقيل « مغرب » ثم قيل عشاء ، لأن الليل أعشى الأبصار ثم قيل « فجر » لأنه انفجر الليل فبدا الصبح .

حدثنا بنحو ذلك سفيان بن وكيع — حدثنا أبي عن سفيان عن ابن عقيل عن جابر بن عبد الله أنه قال : « الظهر كاسمها والمغرب كاسمها والفجر كاسمها ».

قال أبو عبد الله رحمه الله : والفجر آية والزوال آية والهبوط للانحدار آية والغروب آية لظهور الليل ويطبق الآفاق . فأمر عند ظهور كل آية من هذه الآيات بالقيام فقام الاعتذار متنصلا إليه مما اكتسبت جوارحه .

ومما يحقق ذلك : قول أبي بكر رضي الله عنه : « إن الملائكة تقول عند وقت كل صلاة يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها » أخبرني بذلك أبي عن قبيصة عن سفيان عن الصلت بن دينار عن يزيد بن عبد الله بن الشخير فيما

أحسبه . وقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « يحترقون ثم يحترقون ثم يصلون حتى ذكر خمس صلوات » أي يحترقون بالذنوب ثم يصلون فيعودون كما كانوا . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الصلوات كمثل نهر جار على باب أحدكم يغتمس فيه كل يوم خمس مرات فماذا يبقى من درنه ؟ » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ثم لهذه الأوقات مذاهب : للظهر إلى العصر وللعصر إلى المغرب وللمغرب إلى العشاء وللعشاء إلى الفجر فكان ابن عباس يستحب تأخير الفجر يتأول أن الصلوات متواصلة بعضها ببعض وإنما يدفع الله عن أهل الأرض بالصلاة .

فأهل الصلاة يصلون من أول كل وقت إلى آخره فهم في الصلاة والصلاة دائم فعلها في الأرض . فإذا بدت الشمس للطلوع حرمت الصلاة على أهل الصلاة حتى تطلع . فتنقطع الصلاة عن أهل الأرض . فذلك أخوف الأوقات فأحب أن يؤخر حتى لا يكون لانقطاع الصلاة إلا شيء يسير ثم تحل الصلاة » .

حدثنا بذلك عمر بن أبي عمر حدثنا الربيع بن روح الحمصي عن بقية حدثني أبو بكر بن أبي مريم عن عطية بن قيس عن ابن عباس أنه كان يقول : « أسفروا صلاة الفجر فإنها صلاة واصلة حتى تصلي صلاة الفجر فإذا صليت انقطعت » عن ابن عباس بمثله .

حدثنا صالح بن عبد الله حدثنا يحيى بن زكريا عن أبي زائدة عن أشعث عن حماد عن إبراهيم قال : « أدلجنا مع علقمة من قرية من قرى السواد ، فلما طلع الفجر قام فأذن وصلى ركعتين ثم ركب فسار فقلت الصلاة : فلم يجبني حتى قلت له مرارا قال إنما يغلس من يطيل القراءة وإنا قوم سفر . فنزل فصلى ركعتين خفيفتين » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ثم للرسول صلى الله عليه وسلم اختيار في خاصة نفسه واختيار لأهل الفضل في أمته ممن لا عذر له من أشغال نفسه ثم بعد ذلك لأهل العلل والأعذار إلى آخر الوقت .

فأما اختياره لنفسه فأول أوقاتها واختياره للأمة أوساطها ثم بعد ذلك رخصة لأهل العلل من طريق لزوم الحكم فيكونون مؤدين لذلك فى أواخر تلك الأوقات لجرى ذلك عنهم .

فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله » .

حدثنا بذلك الزبير بن بكار الزبيرى حدثنا سعد بن سعيد المقرى عن جعفر ابن إبراهيم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحدثنا داود بن حماد حدثنا الباهلى البصرى عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

قال أبو عبد الله رحمه الله : وقد فسرنا تأويله قبل هذا .

قال أبو عبد الله رحمه الله : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا » .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الأوقات إلا فى أول وقتها » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة أول وقتها » .

حدثنا بذلك أبى — حدثنا أبو نعيم الفضل عن العمرى — وحدثنا الجارود عن وكيع عن العمرى عن القاسم بن غنام الأنصارى عن بعض أمهاته عن أم فروة وكانت ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان قالت :

« سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ قال الصلاة فى أول وقتها » .

حدثنا عباد بن بكر بن عباد بن كثير الثقفى حدثنا محمد بن معاوية حدثنا الليث ابن سعد عن عبد الله بن عمر العمرى عن القاسم بن غنام عن جدته الدنيا عن جدته أم فروة وكانت ممن بايع (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذكر عنده الأعمال يوما فقال : إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة فى أول وقتها .

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا عبد الله بن يزيد المقرى عن سعيد بن عبد الله الجهنى عن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : — « يا على ثلاث لا تؤخرها —

١ — الصلاة إذا أتت .

٢ — والجنازة إذا حضرت .

٣ — والأيم إذا وجدت لها كفئا .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فالأحداث كائنة فكما أن الجنازة إذا حضرت فأخرت الصلاة عليها حدث بها حدث لم يمكنك الصلاة عليها — والأيم إذا وجدت لها كفئا فأخرت تزويجها حدث فساد لا تدركه أبدا . فكذلك الصلاة إذا حضر وقتها (٢) فكائن أن يحدث بك حدث الموت فتفوتك صلاة وهى أعظم من الدنيا وما فيها شرقا وغربا . ومما يدلك على عظم شأنها ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قيل له فى شأن رجلين توفيا فاستشهد أحدهما وبقى الآخر سنة فمات . فرأى طلحة بن عبيد الله أنه دخل هذا الذى مات الجنة قبل الشهيد فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« أو ليس قد صلى بعده ألفا وثمانمائة صلاة » .

وروى ابن المبارك فى حديثه : قال دخل رجل من أصحاب رسول الله صلى الله

(١) ولكنها فى الأصل بايعت

(٢) ربما حضرتك الوفاة

عليه وسلم وابنه معه والإمام يصلى فكبر الأب ثم كبر الإبن . فلما قضى صلاته قال الأب للابن : لمَا سبقتك أحب إلىّ من كذا وكذا .

حدثنا بذلك عبد الكريم عن على بن الحسن عن ابن المبارك حدثنا عبد الجبار ابن العلاء حدثنا سفيان عن مسعد عن إبراهيم السككى عن عبد الله بن أبى أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ففى الصلاة فى أوائل أوقاتها خصال غير واحدة : منها ١ — إستقبال الرحمة فى أوائل العباد ٢ — ورفع عملك فى أوائلهم إلى الله — ألا ترى إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا زالت الشمس فإن كان بيده عمل رفضه — وإن كان نائما فكأنما يوقظ فيقوم فيتوضأ فيصلى أربع ركعات يتمهن ويحسنهن . قال أبو أيوب : فقلت يا رسول الله إنك لتدمن عليهن — قال إن أبواب السماء تفتح فما ترتج حتى تصلى هذه الصلوات — فأحب أن يرفع عملى فى أول العابدين » .

رواه ابن المبارك عن الأوزاعى رفعه إلى أبى أيوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — وخصلة أخرى أن الذنوب والخطايا ذكرت فى الكتاب وذكرت السيئات وهن مما يقبحن العبد . فأخبر أى[١] الحسنات يذهبن السيئات — فقالوا الصلوات .

وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مثل الصلاة مثل نهر جار يغتمس فيه فما يبقى من درنه ؟ وما قالت الملائكة : يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم

(١) فى الأصل (أن)

فأطفئوها فالنار تحرق والدرن يقذر والسوء يقبح فمن سخت نفسه على صحبته الحريق والقذر والقبيح وهو يعلم أن الذنوب والخطايا هكذا هى وقد عملها فهو لئيم بما سخت نفسه غافل عما هو فيه . والعاقل فهم هذا فبرم وضاق به ذرعا حتى جاء الوقت فبادر ليخف ويطهر ويحسن ويعود كما كان .

٤ — وخصلة أخرى : إن التعظيم لله تعظيم لأمره وإنما يشرف عبد الله من يعظمه وإنما يعظمه من يعظم أمره كما ترى العبيد من أهل الدنيا إنما تشرف منازلهم عنده بإظهار المحبة لمولاه وتعظيمه له وبذله نفسه له طوعا وإنما يظهر ذلك له بالوثوب عند أمره مسارعا . فدل ذلك من فعله أنه خليل الله فى عينه ، محب له بقلبه ، باذل له نفسه ، ودل فعل الكسلان البطىء فى أمره أنه عاجز عن هذا كله غافل . فشرف الأول وانحط الآخر .

فكذلك العبيد عند الله أوفاهم حظاً منه وأشرفهم منزلة : وأحبهم له وأجلهم عنده . وربما يظهر ذلك بالمسارعة إلى أمره . ألا ترى إلى ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : عن الله تبارك وتعالى أنه قال : ما تقرب عبدى بمثل أداء الفرائض[١] ثم يتحبب إلىّ بعد ذلك بالنوافل فما يتحبب إلىّ بشىء من النوافل بمثل التضحية لى حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وفؤاده ، فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق وبى يمشى وبى يعقل » وفى مناجاة موسى عليه السلام ذكرهم — أربعون رجلا فى أرض — بهم تقوم الأرض ياموسى وهم الأبدال ولولاهم لدمرت الأرض وكلهم والٍ ولى» .

وسئل عيسى ابن مريم صلوات الله عليه عن النصح لله : قال إذا عرض لك أمران أحدهما لنفسك والآخر لله فابدأ بأمر الله.

فمن التضحية لله إيثار أمر الله فى أول وقته الذى يلزم على جميع — أمورك

(١) فى الأصل بسقوط الألف واللام « فرائض »

لتستوجب بذلك محبته الذى تصير فى قبضته واستعماله، فبه تقوم وبه تعيش فى متقلبك ومثواك . فهذا عبد منتخب مصطفى من أوليائه وأحبائه وأهل معرفته ومن أكرمهم لنفسه فإن لله عبيداً أكرمهم بالطاعة وعبيدا أكرمهم بمعرفته — وعبيدا أكرمهم بنفسه ، فكان لهم كما كانوا له . ومما يدلك على ماقلنا بديا أن أهل الوظائف من عبيد الدنيا إنما يكرمون على ساداتهم وينزلون عندهم منازلهم حسب قيامهم بأداء وظائفهم . فعبد يؤدى وظيفة خراجه عند مستهل الهلال . وآخر يدافعه تسويفاً حتى يطعن فى الشهر . فالأول مؤثر أمين متين وجيه عند مولاه والثانى متجاوز عنه .

وروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحدث نسائه فإذا حضر الوقت فكأنه لم يعرفهم .

حدثنا بذلك الفضل بن محمد عن أحمد بن أبى الحوارى عن أبى سليمان الدارانى رفعه إلى عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه .

وقال أبو سليمان رحمه الله : — لايتفرغ للصلاة إلا قلب مؤمن ، وقال مروان خيار أمتى الذين يتوضئون قبل الوقت . وأوساطهم فى أول الوقت — وأدناهم فى آخر الوقت .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأما الأخبار التى جاءت فى التأخير فإنا فتشنا عن ذلك فوجدناها بأسباب وعلة .

— فتأخير الظهر من قبل الحر ، فقال أبردوا تخفيفاً على الأمة وتأخير العصر من قبل حملة القرآن وذلك أنهم إذا صلوا العصر انقطعت الصلاة ، وتأخير العشاء من قبل قيام الليل فإن أهل الصلاة ممنوعون عن النوم حتى يصلوا العشاء . فكانوا يؤخرون قليلا ليصلوا إلى أورادهم من القرآن بالليل . فليس

كل أحد كان يقدر أن يقوم بالليل فأخر العشاء ليصلوا فيما بين المغرب والعشاء . فيحتسبوا به قيام الليل ، ومما يحقق ماقلنا . أن الصلاه دخول وقتها بين . فلم تؤخر إلا لعلة على نحو ماوصفنا : أما [1] المغرب فلم يرخص لأحد فى تأخيرها إلا لمريض أو مسافر يجمع بينها وبين العشاء . فأما لغير ضرورة فلا تؤخر إنما تصلى لوقت واحد إذا غربت الشمس . وكذلك جاءت الصفة فى حديث جبريل عليه السلام فى المواقيت أنه جاء اليوم الأول فصلى المغرب حين غابت الشمس ثم جاء اليوم الثانى حين غابت فصلى ولم يؤخرها كما أخر سائر الصلوات .

حدثنا بذلك عمرو بن صالح اللؤلؤى — حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا الحسن ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم قال أخبرنى وهب ابن كيسان عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا سفيان بن وكيع — حدثنا أبى قال سفيان الثورى قال عن عبد الرحمن بن الحارث ابن عباس بن أبى ربيعة عن حكيم بن حكيم بن عباد بن ضيف عن نافع ابن جبير بن مطعم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله وزاد فيه .. ثم قال يامحمد هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك . . .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ففى كل هذه الروايات أن جبريل عليه السلام صلى المغرب فى اليومين فى وقت واحد .

حدثنا فضالة بن الفضل الكوفى حدثنا أبو بكر بن عياش عن عبد الله بن سعيد عن جده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

« لا تزال أمتى على الفطرة ما لم يؤخروا الصلاة عن وقتها » .

حدثنا صالح بن محمد حدثنا حفص بن سليمان عن الصلت بن بهرام عن الحارث ابن وهب عن الصابحى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) فى الأصل (أن المغرب)

« لا تزال أمتى فى مسكة مالم يعملوا ثلاث

١ — مالم يؤخروا المغرب إلى إظلام بها مضاهاة اليهودية

٢ — ومالم يؤخروا الفجر امحاق [(١)] النجوم تأخيرا شديدا مضاهاة النصرانية

٣ — ومالم يكلوا الجنائز إلى أهلها .

حدثنا الحمانى حدثنا إبراهيم بن أبى محذورة عن أبيه عن جده عن أبى محذورة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

« إذا أديت المغرب فاحذرها مع الشمس حذرها » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : — فلما لم يكن لصلاة المغرب علة أقرت فى وقتها ولم يرخص فى تأخيرها إلا لعلة الجمع بينهما — فى سفر أو مرض .

فأما صلاة الفجر فانه لم يأت الحديث بتأخيرها إنما أتى بالإسفار . فأكثر ما روى فى ذلك عن رافع بن خديج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

« أسفروا بالفجر فكلما أسفرتم فهو أعظم لأجركم »

فأهل غلط الفهم حملوا هذا على التأخير ولا يعلمه هكذا ولو أعمق الناظر فى ألفاظ هذه الأخبار فلم يحملها على تجربته لكان محقوقا بأن يوفقه للرشاد ويلهمه ولكنه بطياشة نفسه وحلاوة نوبه فى الهوى الذى ركبه لا يقدر أن ينظر لأن الهوى قد أظلم عليه صدره .

فروى فى شأن الظهر فقال أبردوا ولم يقل أخروا ليعلمك أن هذا التأخير لسبب الحر فقال أبردوا . لينتظم المعنى فى اللفظة وتعقل الأمة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك من أجل الحر، ثم روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يؤخر العشاء فإنما أخرها لصلاة المصلين، لأنهم إذا صلوا العشاء ناموا . ومما يحقق ذلك : الحديث الذى

(١) امحاق النجوم ذهابها فلا ترى .

روى عنه صلى الله عليه وسلم « أنه احتبس ليلة حتى ذهب نحو من ثلث الليل فخرج إليهم فرآهم بين قائم وقاعد . فقال : لولا أن أشق على أمتى لأخرت هذه الصلاة إلى هذا الوقت ثم تلا « ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمة »[(١)].

وروى فى الفجر بالإسفار فلهذه اللفظة معنيان :

١ — أحدهما أن يكون أمر بالإسفار لكى نتحقق أنه الفجر الذى هو الصبح لأن الفجر فجران : فكانوا يبادرون بالصلاة والناس فى إقبال من الدين والإسلام طرىء . فدلهم على الإسفار حتى يتحقق أنه فجر الصبح . ألا ترى أن أبا موسى صلى الفجر يوماً وهو أمير الجيش فأراد أن يغير على قوم فتراءى له آية الفجر فصلى ثم استبان عنده غير ذلك ، فأعاد ثم تراءى له فصلى ثم تحقق عنده أنه لم يصبح حتى أعاد يومئذ ثلاث مرات . فكان هذا الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى لمثل هؤلاء . فقال أسفروا فكلما أسفرتم فهو أعظم لأجركم » وكان فعله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ظاهراً ، أنه كان يغلس بها حتى ترجع النساء وهن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس » .

٢ — ومعنى آخر فى الإسفار أن يفتتح الصلاة بغلس ثم يمكث فيها فيسفر بها للتطويل فى القراءة فكلما أسفرتم فهو أعظم لأجركم أى فكلما أسفرتم من أجل القراءة كان أعظم لأجركم . وإلا فبالتأخير أى أجر يستوجب فيعظم أجره ؟ وماذا يريد به حتى يعظم أجره ؟ .

لولا تطويل القراءة فان الله تبارك اسمه خص هذه الصلاة بقراءة القرآن ونسبه إليه فقال : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً »[(١)]

قال أبو عبد الله رحمه الله : ومن هاهنا نرى قول رسول الله صلى الله عليه

(١) الآية ١١٣ من سورة آل عمران .

(٢) ٧٨ من سورة الإسراء .

وسلم : « من صلى الغداة فهو فى ذمة الله . . فلا يطلبنك الله من ذمته بشىء فإنما خصه من بين الصلوات أنه يصير فى ذمته لشهوده .

ومنه قول ابن مسعود رضى الله عنه — حدثنا بذلك الجارود عن أبى معاوية عن الأعمش عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : دخل ابن مسعود رضى الله عنه المسجد لصلاة الفجر فإذا قوم قد أسندوا ظهورهم إلى القبلة فقال تنحوا عن القبلة لا تحولوا بين الملائكة وبين صلاتها فإن هاتين الركعتين صلاة الملائكة .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأما ما ذكر فى التنزيل فقال : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل[1] » فدلوكها ميلانها وزوالها ثم قال : « وقرآن الفجر » أى أقم الصلاة لقرآن الفجر . فأمر بإقامة الصلاة لهما — للدلوك ولقرآن الفجر ثم خص قرآن الفجر لشهوده فقال : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » فلو أن رجلا أسفر بها فلم يزل يطولها حتى أضاء لكان أعظم أجراً من الذى قصر فى القراءة . ومما يدل على ذلك أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قرأ سورة البقرة فى صلاة الغداة . فقال عمر رضى الله عنه : كادت الشمس أن تطلع . فقال : لو طلعت لم تجدنا غافلين فكانوا يغلسون بالإفتتاح ويطولون القراءة فيسفرون بها . وسنة عمر رضى الله عنه جارية فى ذلك فى زمانه . كان يقرأ « بالنمل » وبنى إسرائيل « والكهف ومريم » ونحوها من السور فى صلاة الغداة ، فهل كان يمكنه ذلك إلا بتقديم الافتتاح ثم يتمكث فيه فيسفر ؟ وأما فعل على رضى الله عنه أنه كان يؤخر ويقرأ بإذا الشمس كورت ونحوها فإنه كان رجلا محارباً لا يخرج بغلس خوفاً على أصحابه فلم يزل يحذر ولم ينفعه الحذر فقتل فى ذلك الوقت . فهذا لعلة ولا يحتج بالعلة .

٣ — ومعنى ثالث فى الإسفار ما ذكرناه بدياً من قول ابن عباس رضى الله عنه أنه كان يسفر بها ويقول إنها متواصلة فإذا صليت انقطع . فأحب أن يكون

(١) الآية ٧٨ من سورة الإسراء

ذلك الانقطاع إلى مدة يسيرة حتى تحل الصلاة فيأخذ أهل الأرض فيها ليكون العذاب مرفوعاً عنهم .

وكذلك روى عن علقمة بن قيس وقد كتبناها فيما تقدم من الكلام .

حدثنا الفضل بن محمد حدثنا عبد السلام بن عبد الرحمن الحرانى القطفانى حدثنا خالد بن مخلد القطوانى حدثنا يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل قال سمعت زيد بن أسلم يحدث عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أسفروا بصلاة الغداة يغفر الله لكم » .

فأما ما روى عن عبد الله بن الحسن أنه قال : ليس لأول الوقت فضل على آخره » فأحسن تأويلاته عندنا والله أعلم : أنه رأى الوقت ساعات قد خصت بأن يرغب إليه فيه فيعتذر وتنزل الرحمة فهو خاق من خلقه ليس لأوله فضل على آخره .

فأما السابق فى الوقت إلى أمر الله المبادر المتسارع فإن له من الفضل مالا يعلم[1] أحد من الأمة ينكره . ولو أنكره لقال منكراً . وكيف لا يكون منكراً وقد أثنى الله تعالى على أنبيائه ورسله فى تنزيله فقال : « كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً[2] » . ثم قال فى آية أخرى « ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين[3] » ثم قال : « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم[4] » ثم قال « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم[5] » — ثم قال « والسابقون السابقون أولئك المقربون[6] ثم قال « ومنهم سابق بالخيرات بإذن

(١) فى الأصل « أحدا » بالنصب
(٢) الآيه ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ١١٤ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٤٨ من سورة المائدة .
(٥) الآية ١٣٣ من سورة ال عمران .
(٦) الآية ١٢،١١ من سورة الواقعة .

الله ذلك هو الفضل الكبير[١] » فمن يقدر بعد هذا من ذى عقل أن ينكر فضل السرعة والسبق والمبادرة لأمر الله السابق إليه غير خفى منزلته وغير مدفوع فضله . ومعنى قول عبد الله بن الحسن فيما نعلمه فى شأن ساعة الوقت فإن الفضل له بالسبق لا بالساعة . فإن الساعة خلق من خلقه . فإن لفظ ما روى عنه إن كانت الرواية محفوظة أنه قال : ليس لأول الوقت فضل على آخره » ولم يقل ليس للمصلى فضل فى أول الوقت على آخره . فقد بان المفنيان — بوناً بعيداً فمن تأول قول عبد الله بن الحسن رحمه الله ذلك التأويل لزمه أن يكون من سبق الى أمر الله فضلا فى أول الوقت لم يفضل الكسل الوهن البطىء فى أمره «إنما تأوله بغتامته وغلط فهمه وعجزه عن معانى العلماء عند مطالعتهم بعقولهم غور الأمور وبعده عن الروية وانتقاده نور الحكمة وغلبة ظلمة الهوى عليه . وما شبهته إلا بمثل ما روى لنا عن همام بن يحيى .

حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر قال حدثنا عبد الله بن رجاء البصرى حدثنا همام ابن يحيى قال سمعت أبا حنيفة يقول : لا بأس بأكل الخنزير البرى » قال أبو عبد الله رحمه الله : فتعجبت لهمام كيف قارب على هذا القول والكتاب ينص على تحريمه فى آية محكمة والأمة مجتمعة على أنها محكمة . فخطأه متحيراً فى قوله وإنما الرواية التى أخذها عنه أهل الفهم من قول أبى حنيفة أنه قال لو أن رجلا رمى خنزيراً وسمى فأصاب صيداً . فقال : إن كان الخنزير برياً فلا بأس بأكل الصيد وإن كان أهلياً فلا يأكل الصيد لأن رميته خرجت من عنده على شىء أهلى فهو وإن أصاب الصيد فانه لم يرده ولم يصطده وإن كان الخنزير بريا فهو محرم أكله فان أصاب تلك الرمية ما أبيح أكله فلا بأس بأكله فيرى همام للذى حكى عن عبد الله بن الحسن ما حكى ولا يبعد محله من العلم محل همام . والله أعلم . ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

(١) الآية ٣٢ من سورة فاطر .

تعليم الوضوء

حدثنا صالح بن محمد حدثنا القاسم بن عبد الله عن حشرج عن نباته عن إسحاق ابن ابراهيم عن عدى بن حاتم أن رجلا من أعراب بنى طميرا . أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول : علمنى وضوءك ، واستغفر لى ربك ، وادع لى بالموت : فقال يا آل محمد ائتونى بوضوء : فأتوه بإناء شبه المكوك [١] فأعده فغسل كفيه ثلاثا واستنشق ثلاثا وغسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاثا ثلاثا . ومسح برأسه وأذنيه وغسل رجليه ثلاثا ثلاثا فقال هذا وضوئى فمن جاوز هذا من أمتى فسموه ظالما قد رغب عن سنتى » . ثم استغفر له ثم قال : أما الموت فلا ينبغى لى أن أدعو به لأحد من أمتى ثم قال : أليس تقول فى كل يوم وليلة مرارا لا إله إلا الله ؟ قال بلى — قال فكل مرة تقولها خير لك مما بين المشرق والمغرب . قال وأنت تصلى فى كل يوم خمس صلوات فاذا أنت صليتهن حلت هذه عنك عقدة وأطلقت هذه عنك عقدة ووضعت هذه عنك غظيمة وصرفت الأخرى عنك كبيرة وغسلت هذه عنك موبقة ثم نوافلك بعد ذلك زلفى فهذا هكذا إلى يوم الجمعة . وإذا أنت جمعت وانصرفت كنت كمن قفل من جهاد فى سبيل الله فالموت الآن أحب إليك أم الحياه ؟ فقال لا بل الحياة .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم علماً من أعلام الهدى أشمخ الأعلام فى العلا وأنوارها فى السناء والضياء وأوفرها فى الخطر فمن طلب دين الحق وجده الإنساء ومن طلب الوصول إلى الله وجد به السبيل إلى الله وقال فى تنزيله . « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة[٢] .» وقال . . ورحمتى

(١) المكوك هو طاس يشرب فيه — ومكيال يسع صاعا ونصفا .
(٢) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

وسعت كل شيء فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون والزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي[١] » فأوجب لمن اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم الرحمة والأسوة الحسنة ثم قال : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله[٢] » فجعل اتباعه علما للمحبة لله وأوجب محبته للعباد بذلك . فاذا سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شيء تبعه المهتدون . واقتصروا على سنته وزاغ الزائغون يميناً وشمالا فحملهم الزيغ عن اليمين على أن أفرطوا فغلوا ، وحملهم الزيغ عن الشمال على أن قصروا وذلك سبيل العدو .

حدثنا عتبة بن عبد الله الأزدى حدثنا ابن المبارك أخبرنى عوف عن الحسن قال : إن دين الله وضع دون الغلو وفوق التقصير . فجاء العدو : فدعا إلى الغلو والتقصير فهما السبيلان إلى نار جهنم فكل من ثبت على طريق العدل فله الإستقامة والثناء من ربنا والموعود الجزيل من قوله :

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا[٣] »

فهذا عبد ثبت الله غريزته باليقين الصادق فاستقام به قلبه ولم تجد النفس به سبيلا إلى الزيغ به .

ومن حرم هذا الثبات ولم تكن له غريزة يقين جاشت النفس بهواها ودارت به دوران « الرحى » وتكفأ القلب تكفؤ السفينة فذهب يطلب الهوى فمده العدو إلى الغلو فتحير . ثم رجع شمالا يطلب الهوى فمده العدو إلى التقصير . فأى سبيل من هذين السبيلين يسلكه فهو سبيل النار . وذلك قوله : « إنكم

---

(١) الآية ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٣٠ من سورة فصلت .

كنتم تأتوننا عن اليمين[١] » أى من طريق الحسنات غروراً وخداعاً وشبهة وضلالا .

فالوضوء بهاء وجب فى التنزيل غسل هذه الأعضاء ومسح الرأس « فالغسل مرة واحدة » ولكن لما كان كائناً أن يبقى منه شيء لم يصبه الماء ولو بمقدار رأس إبرة ثنى الغسل وثلث — ليعم مواضع الغسل فلا يبقى شيء . ألا ترى أنه غسل مواضع الوضوء ثلاثاً ثم لما صار إلى المسح . ليكتفى[٢] عند واحدة لأن المسح لا يعم . ولا يخلو من أن يفوت منه شيء ولو أعاده مرات .

فمن ذهب يزيد على سنته فى هدد المرات فقد غلا وظلم نفسه فلذلك قال « سموه ظالما » .

وأما قوله « إن الموت لا ينبغى لى أن أدعو به لأحد من أمتى » فإنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الخلق ليدعوهم إلى كلمة التقوى « لا إله إلا الله » فمن أبى قاتلهم بهؤلاء الذين أجابوه . فكيف يستجيز أن يدعو لهم بالموت ؟ .

ولقد كان يعز عليه أن يموت أحدهم طفلا لم يدرك العبادة . فكيف يدعو لمدرك بالغ يهيب العدو به ويكثر به سواد الأمة لإقامة الدين أن يدعو الله لقبضه !

وأما قوله « إن قول لا إله إلا الله خير لك مما بين المشرق والمغرب . . فإن كلمة لا إله إلا الله — جامعة للأمة ، وبها تقبل الأعمال ، وبها يسكن غضب الرحمن عن أهل الأرض ، وبها يسكن غليان النيران وفورانها عن أهل الأرض ، وبها يعطف الله على أهل الأرض ، وتمطر السماء وتخرج الأرض نباتها ، وقائلها أمان لأهل الأرض ، وإلى قائلها ينظر الله من بين أهل الأرض ، وبها صاروا أحباب الله وأولياءه وأنصاره ، وبهذا القول تغسل الأرض غسلا من رجاسة

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الصافات .
(٢) هكذا فى الأصل والصحيح .. اكتفى بواحدة .

الشرك وأهله ، وبهذا القول تطرد الشياطين عن أهل الأرض وينهزمون إلى أوطانهم من جزائر البحور . وذلك قوله « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده وَلَّوْا على أدبارهم نفوراً(١) » . وكذلك قول العدو فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال إبليس : قصمت ظهر ابن آدم بالشرك فقصم ظهرى بالتوحيد . ثم قصمت ظهره بالذنوب فقصم ظهرى بالاستغفار . قال الله تعالى « وما كان الله معذِّبهم وهم يستغفرون(٢) » فكلمة التوحيد وكلمة الاستغفار أمانان للعبد المؤمن .

وأما قوله « وأنت تصلى فى كل يوم خمس صلوات فاذا أنت صليتهنّ حلت هذه عنك عقدة ، وأطلقت هذه عنك عقدة ، ووضعت عنك هذه عظيمة ، وصرفت الأخرى عنك كبيرة ، وغسلت عنك هذه موبقة » فان هذه إشارات مختلفة وأفعال بألفاظ متجهة لمعانى . تدل كل إشارة على شىء وكل لفظ على وجه . فليس فى الحديث بيان من قوله هذه — إلى أى شىء أشار — إلا أن الفعل يدل عن إشارات الناس على أنهم يمثلون الأشياء ذوات العدد بالأصابع ثم يشيرون إلى إصبع إصبع ، فاشتدلالناس أنها من شأن ما يحدث عن أول صلاة صلاها . فدل على أنه أشار بإبهامه إلى الخنصر من الأصابع . لأن المشير إذا أشار إلى عدد فإنما يشير بالإبهام . فإذا أشار بالإبهام فإنما يشير الى الخنصر ثم إلى البنصر ثم إلى الوسطى ثم إلى السبابة . فقال إذا أنت صليتهن — حلت هذه — يعنى صلاة الفجر — عنك عقدة — وأطلقت عنك هذه عقدة . فالحل غير الإطلاق — والوضع غير الحل . والإطلاق والصرف غير الوضع والحل والإطلاق — والغسل غير الصرف والوضع .

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

منازل الصلوات من العباد

فنظرنا إلى مرات هذه الصلوات من الله ومنازلها من العباد . فإنما وضعها الله للعباد غياثاً ومدداً على هيئات ما يأتون من الأمور — وجعل أوقاتها على صور الأحداث الكائنة فى ذلك الوقت ، وإنما تتباين منازلها لتباين أوقاتها التى افترضت فيها . وإنما تتباين أوقاتها لتباين أحوال العباد .

١ — فأما صلاة الفجر : فإن الله تبارك اسمه يفتح باب السماء الدنيا فى آخر ساعة من الليل وينادى عباده فيها . روى لنا فى الأخبار المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عبد الله رحمه الله : وكذلك ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حدثنا بذلك عبد الجبار بن العلاء حدثنا سفيان عن عمرو بن عبيد عن الحسن عن جندب بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : من صلى الغداة فهو فى ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء » . وقد جعل الله هذا الليل سكنا لهذا الآدمى ، وجعله لباسا يغطى زينة الدنيا وبهجتها حتى لاتبصر عينه منها شيئا ويأخذ نفسه من عجز بصره عن رؤية الدنيا وحشة ، وجعل الليل سلطانا لئلا تنفر نفوس الآدميين من هوله ، وجعل منامهم فيه راحة لأجسادهم من تعب الحركات بالنهار . نظر للعباد فقال فى تنزيله « ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه — أى بالليل — ولتبتغوا من فضله — أى بالنهار » ثم قال « ولعلكم تشكرون »(١) فاقتضى العبيد شكر هذه الرحمة التى رحمهم بها بهذا الليل والنهار : فإذا نام العبيد فإنما ينامون للذة المرقد لا للعدة — وإنما العدة للصادقين ومسراة للصادقين —

---

(١) الآية ٧٣ من سورة القصص

فيصبح هذا الذى نام لغير العدة وقد عقد العدو على نفسه عقداً فيصبح كسلان خبيث النفس لأنها باتت فى جوار العدو وبطوافه بها لأنه وضع جنبه لغير العدة فأصبح وقد عقد على قافيه رأسه عقدة بمنزلة زمام البعير يقوده حيث شاء — فإنما جلس العدو إلى قافية رأسك — وهى شئون الرأس — لأنه نفث فيها — يريد بذلك النفث أن يخلص إلى عقلك فى دماغك طمعاً فى خمود عقلك . فإذا صلى الصبح فقد وقع فى شاهدية الله فانحلت عقدة العدو وصار فى ذمته وبقى العدو من بعيد ينتظر فرصته . فما زال يوسوس إليه إلى وقت الظهر . والعبد يكتسب نفسه ببلاهته وغتامته . فما يشير إليه العدو ويلوح له ويزين عينه ويوحىء إليه ويشهيه وقد أمر أن يتعوذ منه ، وذلك قوله : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله »[1] وقال لنبيه « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون »[2] . فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك يعلمه أن الذى اصطفاه على البشر فصار سيد ولد آدم محتاج إلى التعوذ بالله منه . فلما ترك العبد التعوّذ وأهمل الحذر والتفت إلى وساوسه : وقع فى العيب . ثم وقع فى الذلة . ثم وقع فى الخطيئة . ثم وقع فى الذنب إلى وقت حضور صلاة الظهر فإذا زالت فصلى الظهر أطاقت عنك عهدة والعهدة ماوجد العدو السبيل إليك بوساوسه ، فاستحق من جسدك بقدر قبولك منه — وصار جسدك ذو سهام[3] :

١ — سهم للعدو بما وجد منك

٢ — وسهم للحق بما وجد منك .

فعهدة المتبايعين : أن يشترى شيئا ويضمن البائع عهدته أنه متى جاء لهذه السلعة مستحق يدعى أن له بهذه السلعة عهد ملك أنه كان فى ملكه قبل هذا

(١) الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة المؤمنون
(٣) أى أنصبة

فهو ضامن لما يدرك المشترى من دعواه ، فهذه هى العهدة . فصارت السلعة بهذه العهدة التى قامت بها بينته مردودة إلى ملك المدعى وانفسخ هذا البيع .

فالعبد موضوع بين الرب وبين العدو — وخلقه وخلق عدوه ثم وضعه بينه وبين عدوه ، ثم اشتراه من نفسه ، واقتضاه الوفاء بتسليم ذلك ليقضى فيه أمره ، ويمضى فيه حكمه وضمن له الوفاء بثمنه وهى الجنة فقال « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة[1] . . . » وقال : « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به[2] » وقال « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم »[3] .

فكلما وسوس العدو إليه فقد استحق من جسده شقصا ليذهب به إلى النار فتلك عهدته التى قد صارت للعبد وثاقا . فكأن الله تبارك وتعالى يقول للعبد : إنك بعتنى نفسك ومالك بأن أفى لك ثمنهما الجنة إن أوفيت لى بتسليم النفس والمال فى أوقات أمرى وأوقات حكمى . وقد جاء ها هنا مستحق استحق منك شقصا فأنت أيها العبد ضامن المدرك الذى أدرك هذا المنع وعليك عهدته فى تخلصها فلم يدر العبد ما يصنع .

٢ — فأمر بصلاة الظهر لتطاق هذه الصلاة هذا العبد من عهدته ويرجع العبد إلى الله تائبا بهذه الصلاة ويبطل الدرك الذى جاء به العدو ليستحق به شقصا من العبد بتوبة العبد فى هذه الصلاة .

ثم وجدنا حال العباد أنهم فى تدبير الله لهم يغدون أول النهار فى طلب معاشهم ومرمة ذلك وإصلاحه : كل صنف على حياله — فالملوك يغدون فى طلب مرمة ملكهم ويتفرغون لتدبير الملك والاحتياط له فى أمر الرعية . وأهل الأموال يغدون

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة
(٣) الآية ٤٠ من سورة البقرة

فى إصلاح أموالهم ويتفرغون لها . والتجار لطلب أرباحهم فى بضائعهم ـ والمحترفون يستعملون قواهم وراحتهم التى أراحوا بها أنفسهم فى ليلهم فيصرفونها فى حرفهم فى أول النهار — وأهل الزراعة فى زراعتهم كذلك — والرعاة فى البرارى كذلك.

فالخلق فى طلب المعاش ومرمتها ينكمشون فيها فى أول نهارهم ، فإذا أدبر النهار خرج كل صنف منهم إلى راحته وتربيته وغذاء النفس ولهو ولعب تفسح فى غفلاتهم فأشغل ما يكون الخلق قلبا إذا رجعوا إلى اللهو واللعب ، وذلك أخوف الأوقات عليهم من العدو فى ذلك الوقت وهى الساعة التى وجد العدو سبيلا إلى أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى الجنة حتى أذله عن المرتبة وسرير الكرامة وأخرجه من ضيافة الكريم الودود — ودخلها ضحوة وأخرج منها بين الصلاتين وهو وقت العصر فتلك ساعة العويل والنحيب والمصيبة العظيمة الهادة فكذلك ولده من بعده تجد كل صنف منهم فى ذلك الوقت ألهى نفساً وأغفل روحا وأخمد عقلا وأشغل قلبا وأخرج ذهناً عما سواه من الأوقات ، لأنهم غدوا إلى أشغال متعبة للقلب . والناس إلى ذلك الوقت كل صنف على حياله يلقى من ذلك النصب بحظه . فلما انقضت أشغالهم وملت نفوسهم وتعبت أرواحهم وانكسرت أسواقهم ، فرغت النفوس من الأشغال ففزعت إلى الراحة طلبا للذات والشهوات وقضاء المنى .

فكل صنف مما ذكرنا من الخلق على درجته فى هذا الوقت بهذه الصفة فى العباد وعمال الله يرعون أنفسهم فى هذا الوقت فهذا وقت الغفلة ووقت خطر عظيم لأن أباك زل فى هذا الوقت فدار فى الجنة دورة عريان هاربا من الله من الحياء — فمال إليه غصن فأخذ شعره فأمسكه : فعاتبه الله ثم لقنه كلمة التوبة « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين [1] » وذلك قوله « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه [2] » .

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٣٧ من سورة البقرة

فتلك ساعة الزلة والغفلة ووجود العدو سبيلا إلى الآدميين وساعة توبة المؤمنين فإن آدم صلوات الله عليه مازال يردد الكلمات حتى بلغ من الجنة شجرة الزيتون فتاب عندها وأدركته الرحمة . وقد أقسم الله تعالى فى كتابه بالزيتون [1] لعظمة منزلة آدم عليه السلام عندها وحلول الرحمة به ، فإن تلك رحمة عمت جميع المرسلين وفيهم محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم النبيون والصديقون والأولياء وجميع الموحدين.

٣ — فدعانا الرحيم الرءوف إلى صلاة فى هذا الوقت وهى العصر كى يضع عنا بهذه الصلاة عظيمة كما وضعها عن أبينا . تلك الخطيئة العظيمة إنما عظمت لأنها كانت فى دار الله تعالى . وليس من جنى فى دار أمير المؤمنين على ماله كمن جنى فى دار بعض رعيته من أشكاله على ماله .

ولذلك أمر الله بالمحافظة على هذه الصلاة فكررها فى تنزيله فقال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » [2] . فجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الصلاة الوسطى : صلاة العصر ».

حدثنا بذلك عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث العنبرى — حدثنى أبى عن محمد بن إسحاق — حدثنا أبو إسحاق الهمذانى عن الحارث عن على رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة الوسطى فقال : هى صلاة العصر التى فرط فيها سليمان » .

حدثنا نصر بن عبد الرحمن الوشاء الكوفى — حدثنا أحمد بن بشير عن سعيد ابن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة الوسطى : صلاة العصر: . .

قال أبو عبد الله رحمه الله : كأنه دل على أنه إنما كرر الوصية والتوبة إلى

---

(١) وذلك قوله تعالى « والتين والزيتون وطور سينين »

(٢) الآية ٢٣٨ من سورة البقرة .

المحافظة عليها من أجل أن الوقت وقت اللهو والغفلة وأنه الساعة التى وجد العدو إلى أبينا آدم صلى الله عليه وسلم سبيلا حتى استزله وواقع الخطيئة، فطمعه فى ذلك الوقت لا ينقطع عن ولده، لأنهم كلهم شهوانيون والشهوة إذا كان قائدها الهوى — هو سلاح العدو وعدته على الآدمى به يستذله . وإذا كان قائد الشهوة حق أخنس العدو وذل وصغر ووقع فى العويل وبكى آسفاً لما يرى من قوة الآدمى ونبله وعظيم ما أعطى من سلطان التوحيد .

حدثنا قتيبة بن سعيد — حدثنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة أن أبا تميم الجيشانى حدثه أنه سمع أبا بصرة الغفارى يقول : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « العصر » بالمخمص — واد[1] من أوديتهم — ثم قال : إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فتركوها . ألا ومن صلاها ضوعف له أجرها . ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد « وهو النجم » .

حدثنا حميد بن الربيع اللخمى حدثنا حماد بن خالد عن حماد بن إسحاق عن يزيد بن أبى حبيب عن مرثد بن عبد الله بن زحر بن نعيم عن أبى أيوب الأنصارى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر نحوه .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإنما تركها من كان قبلنا لما ذكرنا من شأن النفوس أن ذلك وقت لهوها ولعبها وتقبيحها فى هذه الدنيا وولوغ الشيطان بالآدميين فى ذلك الوقت — فمن صلاها ضوعف له فى الأجر ، وكذلك وصف الله فى تنزيله شأن النفس فقال : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »[2] .

---

(١) فى الأصل وادى .
(٢) الآية ٣٧ من سورة سبأ .

وروى عن الشعبى أنه قال فى تفسير هذه الآية : إن الغنى إذا كان تقياً — آتاه الله أجره مرتين » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : ألا ترى أن ذلك من أجل أن الفتنة عليه أشد ومجاهدته نفسه أعظم — والفقير فقره معين له على تقواه . وكم من شىء يهم به الفقير فلا تناله[1] يده ، فيكون ذلك عصمة له أن لا يقدر على ذلك .

ولذلك ما روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لأنا لفتنة السراء أخوف عليكم منى لفتنة الضراء » .

وما قال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه « إنا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر » .

فكل وقت كانت الشهوة أقوى فى النفس والعدو أسرع فالصبر على أمر الله فى ذلك الوقت مضاعف أجره . فكذلك ضوعف لأهل صلاة العصر فى أجرها على سائر الصلوات .

فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث عدى : « وهذه وضعت عنك عظيمة » ، كان معناه يدل على أن صفة النفس والشهوة والعدو فى هذا الوقت على هذه الصفة والعبد متردد فى الشهوة واللذة والغفلة ، فأثقال الوبال قد تراكمت عليه . وهو وقت يخاف عليه التردّى ، فإذا صلى هذه الصلاة وضعت عظيمة — والعظيمة ما وصفنا .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه « من فاتته العصر حبط عمله » يرى أنه حبط عمل ذلك اليوم : لأنه قد حل به ما وصفنا من الغفلة . ثم غفل عن الدواء والشفاء فأحبط عمل يومه .

---

(١) فى الأصل « تنال » بإسقاط الهاء .

وكذلك ما وصف الله فى التنزيل من قوله : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون[١] » . فروى عن أبى بكر بن عياش أو غيره أنه قال : تحبط أعمال يومه . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من فاتته العصر فكأنما وتر أهله وماله » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : لأن العدو إذا جاءك فوجدك على غفلة ذهب بأهلك ومالك فبقيت محزونا لا أهل ولا مال . فإن كان جاءك فى وقت العصر كما وصفنا من الشهوة واللذة وقضاء المنى والأشر والبطر — فتركت الدواء الذى وصفه الله حتى فاتتك صلاة العصر فقد ذهب بحظك من الجنة من الأهل والمال وصرت كأن العدو افترص منك حتى ذهب بحظك من الجنة فلا أدرى يرد عليك أم لا ؟ لأنه كأن أن يلحق العدو فيسترد ماذهب به من الأهل والمال .

ألا ترى أن سليمان نبى الله صلوات الله عليه : مالقى فى هذا الوقت حتى انحط ولحقه الضرر حتى تاب إلى الله واستغفر فذكره الله فى تنزيله وأثنى عليه بأوبته إلى إلى ربه فقال « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب[٢] » والأواب — الرجاع فى كل عثرة وكل نكبة وكل زلة « فإنه كان للأوابين غفورا[٣] » فإنما يؤوبون إلى الله بقلوبهم من هنات نفوسهم فوعدهم بالأوبة المغفرة فقال « ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا[٤] » .

فروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لا ينظر إلى

---

(١) الآية ٢ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ٣٠ من سورة ص .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الإسراء .

صوركم ولا إلى أموالكم إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . فمن كان له قلب صالح تحنن الله إليه .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فقد انتظم صلاح القلب بالمغفرة[١] بما وعد فى التنزيل والتحنين بما أتى به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رجعنا إلى ذكر سليمان نبى الله عليه السلام . قال الله تبارك اسمه فيما أثنى عليه « نعم العبد إنه أواب » ثم وصف ماذا كانت أوبته، وكيف كانت فقال: « إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب — ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق — ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب[٢] » تلك خيل روى لنا أنها كانت عشرين ألفا — فيما ذكر ابراهيم التيمى — وكانت أخرجت من البحر ذوات أجنحة منقوشة فيما أخبرنا به صالح بن محمد عن محمد بن مروان عن جويبر عن الضحاك . فلما عرضت عليه بالعشى أحب تلك الخيل — لا حب فتنة ولكن حب عبادة — فشغله ذلك حتى توارت الشمس بالحجاب — وذلك غروبها .

ومن هاهنا استدللنا أن آخر وقت العصر « غروب الشمس » لأنه قد جعل فى الآية غاية فقال « عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب »

حدثنا أبى حدثنا الفضل بن دكين حدثنا معمر بن بسام الضبى قال سمعت أبا جعفر محمد بن على يقول: « إن سليمان » لولا أنها كانت توارت بالحجاب لم تكن فاتته العصر إنها مالت حتى توارت بالحجاب . فلما أفاق من شغل العروض عليه من تلك الخيل علم أنه قد انحط من درجة إلى درجة . وذلك أن الصلاة وقوف بين يدى الله ودخول عليه فى داره وتعفير الوجه له ساجدا فى التراب . وعرض الخيل قبول كرامة

---

(١) ولكنه فى الأصل أسقط الباء . !
(٢) الآيات : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ من سورة ص .

من الله وهدية أهداها ربنا له . فاشتد عليه انحطاطه من تلك الدرجة إلى هذه الدرجة .

فمسح أعناقها وسوقها بالسيف وألقاها لحما : فشكر الله له ذلك فعوضه عنها الريح مسخرة له رخاء حيث أصاب — أى لينة مطيعة منقادة حيث أراد . ولذلك ماروى « أنه ماترك عبد شيئا لله إلا آتاه الله خيراً منه من حيث لايحتسب وأثابه فى الآخرة عظيم الثواب » .

٤ — فقال عدنا إلى حديث عدى بن حاتم : قال « وصرفت الأخرى عنك كبيرة ندبة يعنى «المغرب» فهذا وقت ترفع أعمال العباد إلى الله ، وفيها تخليط كثير وغفلة وقلة شكر . وقد تمت نعمة الله على العباد فى ممر نهارهم عليهم مع بياض نهار وشمس مشرقة ومتسع فى متقلبهم ومعاشهم ونهماتهم ، فإذا بدا الليل وسلطانه انخنست الشمس وزالت ، وانقمعت من وحشة إقبال الليل لأنه فى أمر عظيم انفصل عن العباد حتى ألبس كل شىء وغطاه على أعينهم ، وانتزعت منهم البهجة ألا ترى إلى قوله «والليل وما وسق (١) » قال : مالف وجمع ، فالليل يكف الخلق عن انتشارهم وتجمعهم عن تبددهم بهول سلطانه ، فإذا رأته النفوس استوحشت من رؤيته فذهبت بهجتهم والتجأ كل إلى مأواه ومفزعه ، فكان النهار منتشرهم ومنفسحهم ومتحلل نشاطهم

فلما تمت النعمة عليهم لغروب شمسهم رفعت أعمالهم بتخليط وأدناس وكفران نعم وإعراض عن أمر الله واستخفاف بحق الله فاستوجبوا سلب النعمة وذلك قوله « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة (٢) ... » قال الله تبارك اسمه فى تنزيله عندما ذكر تبديل أهل سبأ فقال « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور (٣) » ثم قال « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق (٤) »

---

(١) الآية ١٧ من سورة الإنشقاق .
(٢) الآية ٧١ من سورة القصص .
(٣) الآية ١٧ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٩ من سورة سبأ .

ثم قال « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » . فالشاكر مفزعه إلى صلاة المغرب

فجعل صلاة المغرب لعباده وليجة يلجئون إليها ويأمنون فى مدخله ومفازه فصرفت عنك هلكة الكفور الذى وصف شأنه فى تنزيله .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تصعد ملائكة الليل فيسألهم وهو أعلم بهم فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ قالوا : وجدناهم يصلون وتركناهم يصلون »

قال أبو عبدالله رحمه الله : فإنما سألهم وهو أعلم بهم ليستنطقهم بالثناء عليهم فيقبل ثناءهم وشهاداتهم (١) ويغفر لهم ماعلم منهم . وجعلها الله وترا ليسعد العباد ويفوزوا بوتريته .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال : « المغرب وتر النهار . وكانوا يستحبون أن يسألوا حوائجهم فى الركعة الثالثة الوترية التى فيها » .

حدثنا أبى — حدثنا الفضل بن دكين — حدثنا حنظلة القلاص عن عبد الكريم أبى أمية عن عون بن عبدالله قال : « كانوا يستحبون أن يقولوا فى الركعة الثالثة من المغرب ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (١) » .

حدثنا عبدالكريم بن عبدالله السكرى — حدثنا على بن الحسن عن عبدالله بن المبارك حدثنا ابن عون عن رجاء بن حيوة عن محمود بن الربيع عن الصابحى قال : « صليت خلف أبى بكر الصديق صلاة المغرب فدنوت منه حتى كادت تمس ثيابى ثيابه فلما كان فى الركعة الثالثة . قرأ بفاتحة الكتاب ثم قال : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٢)

قال عبد الله بن المبارك حدثنا ابن عبد الله ابن راشد عن مكحول « إنما كان ذلك من أبى بكر رضى الله عنه دعاء ولم يكن قراءة » .

وروى عن على رضى الله عنه أنه قاله (٣) فى المغرب فى الركعة الثالثة . فكانوا يتوخون ما فيها من بركة الوترية .

---

(١) هكذا فى الأصل والصحيح شهادتهم بالأفراد .
(٢) الآية ٨ من سورة آل عمران .
(٣) أى قال نفس الدعاء وهو ربنا لا تزغ قلوبنا »

أخبرنا أبي — حدثنا ابن الأصبهاني عن حكام بن سالم عن عقبة عن حصن عن أبي وائل قال « إنما وثرت الصلاة للكفارات » .

٥ — قال: وأما قوله في حديث عدي «وغسلت هذه عنك موبقة» فهي صلاة العشاء » يغسل الله تعالى بها عنك خطيئة موبقة ، أي مهلكة .

وقد جعل الله تعالى للعباد هذا الليل سكناً وللنفس فيها لذة المرقد .

فإذا غربت الشمس نامت الأمم كلها وأخذت ملاذها من المضاجع وإلى فرش الأزواج . والمؤمن جليس الله على صلاة العشاء قد تجافى جنبه عن المضجع فيعظم موقع هذا عند مولاه . فصارت هذه الصلاة في القوة أنها تفسل العبد عن[1] الموبقات وقد أثنى في تنزيله على أهل هذه الصلاة فقال « تتجافى جنوبهم عن المضاجع[2] » ثم قال « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين[3] » وقال « أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً[4] » وقال « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون[5] » . فلهذه الصلاة عند الله منزلة عظيمة .

حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع عن مهدي بن ميمون عن أسماء بنت عبيد عن الشعبي قال : أنبئت أن النبي صلى الله عليه وسلم : أمسى عن صلاة العشاء حتى مضى من الليل ما شاء الله ثم أتاهم فقال : إن هذه الصلاة لم يصلها أحد من الأمم قبلكم أو غيركم فمن كان طالباً إلى الله حاجة في آخرة أو دنيا فليطلبها في هذه الصلاة » .

---

(١) هكذا في الأصل ولعلها « من »
(٢) الآية ١٦ من سورة السجدة »
(٣) الآية ١٧ من سورة السجدة »
(٤) الآية ٩ من سورة الزمر .
(٥) الآية ١١٣ من سورة آل عمران .

كتابة الصلوات على المؤمنين

قال أبو عبد الله رحمه الله : وقد عظمت بركة هذه الصلوات الخمس على المؤمنين فقال « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » ثم أعلمهم ما قوتها من الأعمال فقال « إن الحسنات يذهبن السيئات[1] » ثم افترضها على عباده وكتبها ووقت لها أوقاتاً بعلمه وحكمته وتدبيره فصيرها مفروضة مؤقتة مكتوبة . وذلك ليلة أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم في العلا . ففرضها عليه وعلى أمته وكتبها ، ثم قال خمس بخمسين لا يبدل القول لدي .

فإنما سميت مكتوبة لأنها كتبت على العباد وكتبت لهم بخمسين ثم جعلها عهداً للعباد عنده — من أتى بها أدخله الجنة — .

فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « قال ربكم : من أتاني بهذه الصلوات الخمس كان له عندي عهد[2] أدخله الجنة » .

فهذا العهد يخرج من الله تبارك اسمه في وقت كل صلاة إلى العباد إذا صلوها — فإنما سميت براءات، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قبلها هناك في العلا على الأمة وكتبت لهم بخمسين . فإذا صلوها خرجت لهم البراءات من الله بما قبلها الرسول على الأمة يومئذ .

---

(١) الآية ١١٤ من سورة هود
(٢) في الأصل « عهداً »

شرح « حديث البراءات »

حدثنا عبد العزيز بن مسلم — حدثنا الهيثم المكى عن الربيع بن بدر عن سوار ابن شهيب قال وهب بن منبه عن ابن عباس قال :

إن لله ملكا يسمى « سمحائيل » وهو من ملائكة الحجاب يأخذ البراءات للمصلين عند كل صلاة من رب العالمين .

فإذا أصبح المؤمنون قاموا وتوضئوا وصلوا صلاة الفجر — أخذ من الله براءة لهم [١] مكتوب فيها [٢] بخط الله الأول الباقى : « عبيدى وإمائى فى حرزى جعلتكم . وفى ذمتى وحفظى . وتحت كنفى صيرتكم : فوعزتى لا أخذلكم ومغفور لكم ذنوبكم إلى الظهر » .

فإذا كان وقت الظهر — قاموا وتوضئوا وصلوا أخذ من الله البراءة الثانية مكتوب فيها : عبيدى وإمائى : بدلت لكم سيئاتكم حسنات وغفرت لكم السيئات وأدخلتكم برضائى دار الجلال .

فإذا كان وقت العصر : قاموا وتوضئوا وصلوا أخذ من الله البراءة الثالثة مكتوب فيها « عبيدى وإمائى حرّمت أبدانكم على النار ، وأسكنتكم مساكن الأبرار ، ودفعت عنكم برحمتى الأشرار .

فإذا كان وقت المغرب قاموا وتوضئوا وصلوا أخذ من الله البراءة الرابعة مكتوب فيها : عبيدى وإمائى : صعدت إلىّ ملائكتى من عندكم بالرضا فحق علىّ رضاكم وأنا معطى يوم القيامه منيتكم .

فإذا كان وقت العشاء قاموا وتوضئوا وصلوا أخذ من الله البراءة الخامسة

---

(١) فى الأصل « له » بالإفراد .
(٢) فى الأصل بإسقاط « فيها » .

مكتوب فيها : عبيدى وإمائى : فى بيوتكم تطهرتم ، وإلى بيوتى مشيتم ، وفى ذكرى خضتم ، وداعىّ أجبتم ، وحقى عرفتم ، وفرائضى أديتم ، أشهدك يا سمحائيل أنت وسائر ملائكتى أنى قد رضيت عنهم .

فينادى ثلاثة أصوات كل ليلة بعد العشاء : يا ملائكة الله : إن الله قد غفر للمصلين الموحدين فلا يبقى ملك فى السموات السبع إلا استغفروا للمصلين ودعوا لهم بالمداومة عليه . فمن رزق منهم صلاة الليل ، فما من عبد أو أمة قام لله مخلصاً فتوضأ وضوءاً سابغاً ، ثم دنا من المسجد فصلى — إلا جعل الله خلفه سبع صفوف من الملائكة : فى كل صف من الملائكة مالا يحصى عددهم إلا الله أحد طرف صف [١] بالمشرق والآخر بالمغرب . فإذا فرغ كتب له بعدد هؤلاء الملائكة حسنات ومحى عنه [٢] بعددهم سيئات ، ورفع له بعددهم درجات » .

قال أبو عبد الله رحمه الله ، فهذه البراءات هى العهود التى يلقون بها ربهم يوم القيامة . فنظرنا فى البراءات فوجدناها مختلفة ووجدناها على سبيل منازل الصلوات كنحو ما وجدناها فى حديث عدى بن حاتم .

فأما قوله فى براءة صلاة الفجر « عبيدى وإمائى — فى حرزى جعلتكم ، وفى ذمتى وحفظى وتحت كنفى صيرتكم ، فوعزتى لا أخذلكم مغفور لكم ذنوبكم إلى الظهر » — فهذه صلاة مشاهدة ، لأن الله تبارك اسمه يشهدها وملائكته وذلك قوله : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل [٣] » ثم قال « وقرآن الفجر » أى أقم الصلاة لقرآن الفجر فهو لهذه المشاهدة .

وقد روينا حديثاً عن ابن بكير عن الليث بن سعد فيما تقدم من الكتاب .

---

(١) فى الأصل « طرف كل صف بالمشرق والآخر بالمغرب » .
(٢) فى الأصل « ومحى عنهم » .
(٣) الآية ٧٨ من سورة الإسراء .

وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى الفجر فهو فى ذمة الله » وإنما صار فى ذمة الله ، لأنه قام بين يدى ربه فى صلاة وهو شاهدها .

وأما براءة الظهر : عبيدى وإمائى — بدلت سيئاتكم حسنات وغفرت لكم السيئات وأدخلتكم برضائى دار الجلال — فهذه صلاة سيل الرحمة — فإذا أزالت سالت الرحمة — السيل — وصير دلوك الشمس علامة لمضى ست ساعات . كما صير قرآن الفجر علامة لتلك الصلاة .

حدثنا الفضل بن محمد حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفاريابى عن الهيثم ابن جميل عن حماد بن سلمة عن الزبير بن عبد السلام عن عبد الله بن مكرز عن عبد الله بن مسعود قال « إن ربكم تبارك وتعالى ليس عنده ليل : نور السموات من نور وجهه — مقدار كل يوم من أيامكم عنده اثنى عشر ساعة[1] . تعرض عليه أعمال العباد بالأمس أول النهار فينظر فيها ثلاث ساعات فيطلع فيها على ما يكره فيغضبه : فأول من يعلم بغضبه حملة العرش فتسبحه ثلاث ساعات فيمتلىء الرحمن رحمة : فتلك ست ساعات . ثم ينظر الله فى الأرحام ثلاث ساعات فيصور فى الأرحام كيف يشاء . يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . فتلك تسع ساعات . ثم ينظر فى الأرزاق ثلاث ساعات يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . فذلك شأنكم وشأن ربكم كل يوم هو فى شأن .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فهذه صلاة يقبل بها صاحبها على الله فى وقت امتلاء الرحمة وينبثق السيل فينال العبد مغفرة السيئات وتبديل السيئات حسنات والحلول بدار الجلال مع الرضا . ودار الجلال فى الجنة يسكنها أجلة أهل الجنان لأنهم كانوا أجلة الموحدين . وإن الرحمة إذا أقبلت[2] على العباد فإنما تقبل بما لا يخطر على قلب بشر فى حشوها .

---

(١) هكذا فى الأصل « والصحيح اثنتى عشرة ساعة » .

(٢) فى الأصل « إلى » .

فليست هى رحمة فقط : إنما الرحمة جارية ، فإذا جرت احتشت من الحب والجود والكرم وما يعجز العباد عن ذكره . فإذا وردت على العباد مشتملة على هذه الأشياء صارت السيئات مبدلة حسنات فتقف مكان كل سيئة حسنة فى صحيفته يوم القيامة بين يدى الله فى المعرض أنور من الحسنة التى عملها العبد . وهذا علم لا تطمئن إليه نفوس البله عن الله — إنما تطمئن إليه نفوس حييت بالله وغاصت فى بحور معرفته : فقالت من أين هذا . لأن هذا من علم الربانيين خاصة الله من العارفين .

وقد رويت فى قوله : « فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات[1] » — أخبار . فمنهم من أدرك كنه الأمر فيه ونال الغوص . ومنهم من عمى عليه حتى حمل تفسير الآية على غير محمله فقال : أولئك الذين غشى عليهم يبدل الله سيئاتهم حسنات مكان الكفر إيماناً ، ومكان الزنا عفة ، ومكان كل معصية طاعة . فليس هذا بتفسير .

ومن يشك أن العبد إذا تاب كانت أحواله هكذا ، فليس هذا تبديل الله ، وإنما تبديل العبد . وإنما الآية تخبر أن الله يبدل سيئات العبد حسنات .

وروى عن أبى هريرة أنه قال : « يبدل الله سيئاتكم : مكان كل سيئة حسنة حتى يتمنى العبد أن ذنوبه كانت أكثر » .

وكذلك روى عن مكحول وعن عمر بن ميمون .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فهذا تأويل[2] من غاص البحر فاستخرجه من علم المعرفة . وذلك أن العبد إذا تاب إلى الله توبة صدق — كتب الله حبه وقربه فيطهر العبد بقربه وصار حبيبه وذلك قوله : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين[3] »

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الفرقان .

(٢) يقصد به تأويل أبى هريرة ومكحول وعمر بن ميمون .

(٣) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة

فإذا أوجب لعبده محبته انتسمت تلك المحبة كل سيئاته فى صحيفته فأحرقت كل جزء منها كل سيئة وقامت مقامها فكانت محبة الله أنور من الحسنة التى عملها العبد . ففى حشو سيئات الزوال ماينال العبد البدل فيجد صحيفته كلها نورا . فحسناته نور . وبدل سيئاته حسنات أنور من حسناته التى عملها العبد . فهذه مرتبة صلاة الظهر .

حدثنا عيسى بن أحمد العسقلانى حدثنا على بن عاصم قال أملاه علىّ يحيى البكاء عن ابن عمر عن عمر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى أربع ركعات بعد ما تزول الشمس عدلت بمثلهن من صلاة الفجر ، وهذه ساعة يسبح الله فيها كل شىء ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله [1] » .

وروى فى الخبر أن ساعات النهار منقسمة على أصناف خلق الله . لكل صنف منهم ساعة يعبدون الله فيها . وذلك مما وجد فى وصية آدم صلوات الله عليه — أنه أوصى ابنه شيث عليهما السلام [2] — أنه قال يا بنىّ : إنى كنت فى الجنة أعرف ساعات عبادات الخلق : فأما الساعة الأولى من حين تطلع الشمس — فهى صلاة بنى آدم للضحى . والساعة الثانية — للملائكة الذين فى السموات . والساعة الثالثة للطير . والساعة الرابعة للهوام . والساعة الخامسة للحيوان . والساعة السادسة للملائكة المقربين . والساعة السابعة لصلوات الرحمن ، وذلك حين تسجد الملائكة وكل شىء لصلاته . فهذه [3] هى الساعة التى لزوال الشمس وهى التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها [4] « إن هذه ساعة يسبح الله فيها كل شىء » .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النحل .
(٢) فى الأصل « عليهم »
(٣) يقصد صلاة الظهر
(٤) سقط من الأصل « فيها »

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحافظ عليها ويخبر : أن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم — كانوا يصلون هذه الصلاة . فإنما صارت براءة الظهر هكذا : لهذه المعانى فيما نعلمه .

وأما براءة العصر : « عبيدى وإمائى : حرمت أبدانكم على النار وأسكنتكم مساكن الأبرار ودفعت عنكم برحمتى الأشرار » فصلاة العصر وقت وسوسة العدو إلى أبينا آدم صلوات الله عليه وغوايته إياه . فى ذلك الوقت ثبت عليه وأخرجه من الجنة بين الصلاتين وكان دخلها ضحوة . فكان ذلك الوقت وقت وجود سبيل العدو إلى أبينا واغترار النفس هاجت لشهوتها التى جاشت فيه [1] . فأمر العباد بالإقبال على الله بالصلاة فى ذلك الوقت ليكونوا فى حصنه . فمن عقد [2] فى ذلك العدو فيه كما طمع فى أبيه — وذلك وقت سلطان المرة السوداء — فيضيق الفؤاد وتهيج الشهوات من الصدر . لأن النهار مقسوم على طبائع العبد :

فثلاث ساعات من أول النهار للدم — وثلاث ساعات بعدها للصفراء وثلاث ساعات بعدها من وقت الزوال إلى ثلاث ساعات وقت السوداء وثلاث ساعات بعدها إلى غروب الشمس وقت البلغم . فأضيق ما يكون العبد فؤادا وصدرا وقت ما بين الصلاتين . فندب العباد لصلاة العصر ليتحصنوا به . ولئلا يجد العدو منهم فى دار البلوى ما وجد من أبيهم فى دار الله [3] .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « عرضت صلاة العصر على من كان قبلكم فأبوها ، فمن صلاها ضوعف له أجرها » .

فإنما خرجت البراءة لأهل صلاة العصر بتحريم الأبدان على النار ، ومساكنة الأبرار ، ودفع الأشرار — لأن التوبة تحرم البدن على النار وتؤدى إلى مساكنة

---

(١) هكذا فى الأصل ولعلها — فيها — .
(٢) هكذا فى الأصل ولعلها — طمع . حتى تناسب ما بعدها .
(٣) من قراءة الفقرة السابقة نستطيع أن ندرك مدى ثقافة الحكيم الترمذى واطلاعه على علم الطب والتشريح .

الأبرار ودفع الأشرار ، لأن الصلاة توبة العبد ورجوعه إلى الله ودخوله فى حصنه فى ذلك الوقت الذى تشوق العدو لغوايته . فلما فزع العبد إلى الصلاة اختسأ العدو .

وأما براءة المغرب : عبيدى وإمائى : صعدت إلى ملائكتى من عندكم بالرضا فحق علىّ رضاكم وأنا معطى يوم القيامة منيتكم » . فوقت المغرب وقت إياب الحفظة إلى الله بصلاة العباد ، وكانوا فى أول النهار هبطوا — فوافوهم فى الصلاة فوجدوا العباد فى دار الله مقبلين على الله بإقبال الله عليهم وانصرفوا عنهم فى آخر النهار إلى الله وتركوهم فى دار الله مقبلين على الله بإقبال الله عليهم فرضوا عنهم وأثنوا على العباد . فذلك وقت ثناء الملائكة على المصلين . ولا يثنى أحد على أحد إلا وهو راض عنه .

فإنما أثنوا على العباد ، لأن الله يسألهم عن حال العباد .

وكذلك جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن ملائكة النهار إذا صعدت قال لهم الرب وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ قالوا : ربنا وجدناهم يصلون وتركناهم يصلون » فإنما سألهم وهو أعلم بما لهم ليستنطقهم بمحاسنهم حتى يصير ذلك ثناء عليهم ، وإخبارا بالرضا عنهم فيقول : فأنا أحق بالرضا عنهم من ملائكتى لأن هؤلاء أمنائى وحفظتى على عبيدى قد صدروا من عندهم بالثناء الجميل وحشوا الثناء الجميل بالرضا . فإذا أظهر أمنائى عن عبيدى الرضا عنهم فأنا أحق أن أرضى — فقد رضيت عنهم وأعطيتهم منيتهم يوم القيامة .

ألا ترى أنه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أثنى على العبد بعد موته : قال الله تبارك اسمه : قبلت شهادة عبادى على عبدى وغفرت له . مالا يعلمون » . فهو أنطقهم — وهو أظهر ذلك الثناء على ألسنتهم فيكون هذا الثناء دائم يلقى العبد به الله يوم القيامة » .

ولذلك قال عيسى بن مريم عليه السلام : « إن الله يقسم الثناء الطيب كما يقسم الرزق » .

وأما براءة العشاء : عبيدى وإمائى : فى بيوتكم تطهرتم ، وإلى بيوتى مشيتم وفى ذكرى خضتم وداعى أجبتم ، وحقى عرفتم ، وفرائضى أديتم — أشهدك ياميكائيل أنت وسائر ملائكتى أنى قد رضيت عنهم » . فالليل سكن العباد، وللنفس هشاشة إلى المضجع ولذة المرقد . وقال : « جعل لكم الليل لتسكنوا فيه[1] » فالليل للآدمى سكن وللنفس هشة إلى المضجع .

فإذا جافى جنبه منتظرا للصلاة حتى يدخل وقتها فصلاها . فارق السكن الذى جعل للنفس وحرمها تلك الهشاشة وجل موقعه عند الله . وأحب العبيد إلى الله — أتركهم لشهوة نفسه — وبها تنال القربة . فلما فارق شهوة نفسه ومشى إلى الله إلى بيته ، وفى ذكره خاض ، وداعيه أجاب ، وحقه عرف — لأن من حق الله على النفس أن يتعبها صاحبها — لأنه كان ترابا نخلقه لحما ودما . ثم خلقه جسداً ذا صورة ، ثم جعله روحانيا نفسيا جمع له الروح والنفس فى جوف واحد يعملان بحياتين وقوتين وتدبيرين عبودة لله . وفى المنام تخرج[2] إحداهما وهى النفس لتعاين وتشاهد أخبار الملكوت فى الغيب ثم ترجع إلى الروح والعقل بتلك الأخبار من البشارة وهى[3] جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فعظمت نعمة الله على العبد فى هذا الخلق على هذه الصفة . وإنما ذكرنا فى هذه الصفة قليل من كثير .

فمن ذا يحصى نعمة الله على هذا العبد الآدمى فى نفسه . فمن حق خالقه عليه أن يراه فى كد العبيد لأنه خلقه عبداً ليعبده . وفى العبودة كد وشقاء كما قال « لقد

---

(١) الآية ٦٧ من سورة يونس

(٢) فى الأصل « يخرج أحدها وهو النفس » .

(٣) فى الأصل « وهو »

خلقنا الإنسان فى كبد »[١] وقال « يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه[٢] » وقال « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣] » فالعبد فى الكد والكدح ومع ذلك مبتلى وممتحن ، فإذا خرج من الإمتحان جاداً ومجداً فى كدحه وكده وإتعابه مترضيا بذلك ربه — فهو مؤد نور لحق الله بقدر وسعه « ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها[٤] » ففى هذه الصلاة[٥] إنما خرج له فى هذه البراءة، إذ قال : فى بيوتكم تطهرتم لأن فعل الآدميين عامة إنما يتخلون ([٦]) بعد العشاء ، لأنهم قد تغذوا ، واهتضم الغذاء فى أجوافهم ثم تعشوا . فقد جاء وقت النفض لما اهتضم من الغذاء . فالغالب على الآدميين فى التدبير هكذا — إن هذا شأنهم : أنهم ينفضون ([٧]) بعد المغرب مما اهتضم من طعامهم بالغذاء ، وينفضون قبل الفجر ما اهتضم من عشائهم ، وهكذا التدبير المؤسس العامى .

ثم للخلق فى ذلك حالات تتقدم وتتأخر وتزداد وتنقص على العلل والأحداث. وإنما الكلام على الأساس لا على الحدث والعلة .

فإنما ذكر فى البراءة أن قال : فى بيوتكم تطهرتم — لأن هذا وقت التطهير على التدبير الذى ذكرنا ، ثم قال : « وإلى بيوتى مشيتم » — فقد مشوا إلى بيته فى وقت الفجر أيضاً وفى الظهر وفى العصر — فإنما ذكر المشى ها هنا فى صلاة العشاء — وخصه من بين الصلوات — فهذا لعبيده كالشكر منه لهم . ولم يذكر ([٨])

---

(١) الآية ٤ من سورة البلد .

(٢) الآية ٦ من سورة الإنشقاق .

(٣) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٤) فى الأصل « إلا الوسع » .

(٥) يقصد صلاة العشاء .

(٦) يتخلون — أى يفرغون ما فى جوفهم من الفضلات ، فى الخلاء

(٧) ينفضون — يقصد به الخلاء . وقد ذكر الأوقات التى يغلب على المرء أن يذهب فيها إلى الخلاء — ونظر إلى الغالب فى الأصحاء .

(٨) هكذا فى الاصل ولعلها « يذكره » .

فى سائر الصلوات وقد مشوا فيها إلى بيوته ، لأن فى صلاة العشاء مفارقة السكن والإنزعاج من الوطن وجفاء المضجع .

ألا ترى أنه قال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع([١]) » ثم ذكر ثوابهم فقال : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين([٢]) » . فعظم الله هذا المشى إلى بيته فى هذه الصلاة وكتب فى البراءة لهم ثناء عليهم وشكراً منه لهم . وقال : « أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه([٣]) » فعظم شأن هذا القيام لأنه قائم بين يديه — وقد أخذ غيره سكنه ومضجعه وآثر هوى نفسه على هوى ربه . وقد وعد الله تبارك اسمه من آثر هواه على هوى نفسه بخصال جامعة فيما روى عنه .

حدثنا أبى — حدثنا إسماعيل بن صبيح عن صباح بن واقد الأنصارى عن إسماعيل بن رافع عن دريد بن نافع — رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكى عن الله تبارك اسمه أنه قال : « وعزتى وجلالى وجمالى وعلوى فوق عرشى ودنوى لمن آثر هواى على هواه لأجمعن له شمله ولأكفينه ما أهمه ولأملأن قلبه غنى ولأضمنن رزقه فى السموات والأرض ولأتجرن له من وراء تجارة كل تاجر — ثم أقسم بمثل ذلك لمن آثر هواه على هوائى : لأشتتن عليه أمره ولأجعلن الفقر بين عينيه ثم لا أبالى فى أى واد هلك » ولذلك قيل صلاة الأوابين ما بين المغرب والعشاء ، لأن هذا العبد قد آب إلى الله من وطنه وترك مضجعه وآثر الله على نفسه .

ثم قال فى البراءة : « وفى ذكرى خضتم » فالخائض فى ذكره هو الذى يصير الذكر له كالماء الغمر الذى يحتاج أن يخوضه . فإنما صار كذلك لأن ذلك وقت

---

(١) آية ١٦ من سورة السجدة

(٢) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٣) الآية ٩ من سورة الزمر .

غفلة الناس : جل موتمه عند ربه . فإنما يخوض الرحمة التي تعمه .

كالذي يعمه ماء نهر فيحتاج إلى أن يخوضه، لأنه قد احتواه من كل جانب .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . حدثنا بذلك إسماعيل بن نصر، حدثنا مسلم بن إبراهيم. حدثنا سعيد بن عبيد بن المطائي عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ذكر الله في الغافلين جعل الله غفلة الناس له ذكراً — ومن ذكر الله في الذاكرين جعل الله ذكر الناس له شكراً » .

حدثنا عبد الرحيم أبو عمرو العبدى عن على بن عاصم عن أبي فليح قال : نزلت منزلا بين المغرب والعشاء : فمر بى طير عظيم فسمعت صوتاً يقول : « سحر عالم غفلة الناس » .

ثم قال في البراءة: «وداعى أجبتم » فالداعى إلى الله في وقت يسهل عليه إجابته ليس يعدل بالداعى في وقت يتعذر ويشتد . لأن النهار ذو أنس والليل ذو وحشة ألا ترى إلى قوله « والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس(١) » وقال « والصبح إذا أسفر(٢) » ففي إسفاره وتنفسه أنس وقوة ، وفي عسه إذا عس وحشة وهول . ألا ترى إلى قوله « والليل وما وسق(٣) » أى لف الخلق فإنما يلفهم ويضمهم إلى الأوطان : وحشته ومهابته . ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يخرج إلى البقيع ليلا فيستغفر لأهل القبور ، فخرج ثم رجع قريباً فقال إني أمرت فخرجت فهبت الليل فرجعت » . فإنما هاب الليل وسلطانه وحق له ذلك . ولذلك قال فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يسير المشاءون(٤) في ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » . فالنور التام هو الذى لا ينقطع عنه حتى

(١) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة التكوير
(٢) الآية ٣٤ من سورة المدثر
(٣) الآية ١٧ من سورة الانشقاق
(٤) في الأصل « المشائين »

تقتضى مسافة الصراط . ولذلك قال في تنزيله « ربنا أتمم لنا نورنا(١) » فإنما سألوا الإتمام مخافة الانقطاع فقد أخبر في تنزيله عن صنف من خلقه : إنه انقطع نورهم في الصراط .

حدثنا أبي حدثنا محمد بن معاوية عن حزم عن الحسن قال :« يقول أهل النار لأهل التوحيد : ما بال هؤلاء لا يعثرون : فيقال لهم : إن هؤلاء كانوا يمشون في ظلم الليل إلى المساجد » .

ثم قال : وحق عرفتم ، وفرائضى أديتم » فأول حق الله على العبد(٢) معرفته. ومن حفظ معرفته حفظ أركانه على حدوده . فإذا ضيع شيئاً من حفظهما فقد ثلم الحفظ ثلمة يحتاج إلى سدها بهذه الفرائض :

بالقيام بالفرائض لسد الثلم من حق الله الذى يلزمه الخروج منه .

حدثنا الفضل بن محمد — حدثنا محمد بن المصفى الحمصى . حدثنا بقية عن عثمان ابن زفر عن أبي عبد الله البصرى عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :« إذا أذن المؤذن لصلاة الصبح : نادى مناد(٣) من السماء : يا أيها الذين آمنوا قوموا إلى ما كتب لكم — فإذا صلوا الصبح كانت لهم كفارة إلى صلاة الظهر . ثم ذكر الظهر بمثل ذلك إلى العصر ثم ذكر العصر بمثل ذلك إلى المغرب ثم ذكر المغرب بمثل ذلك إلى العشاء . فإذا أذن المؤذن للعشاء — نادى مناد(٤) من السماء : قوموا إلى ما كتب الله لكم — فإذا صلوا العشاء باتوا وليس في ذلك اليوم ذنب إلا أن يكون شرك أو كبيرة » .

(١) الآية ٨ من سورة التحريم.
(٢) في الأصل « فأول حق العبد على الله »
(٣) في الأصل « منادى » .
(٤) في الأصل « منادى » .

« حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه فى التسبيح »

حدثنا عمرو بن على الصادق حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا موسى الطحان أخبرنى عون بن عبد الله عن عتبة عن أخيه أو أمه قال : سمعت النعمان بن بشير يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من جلال الله ما تذكرون من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير إنهن ليطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرون صاحبه — أفلا يحب أحدكم أن يكون له عند الله من يذكره » ؟

حدثنا صالح بن عبد الله حدثنا عبد الأعلى عن الجايلى عن عبد الله بن شقيق عن كعب قال « إن للكلام الطيب حول العرش دويًّا كدوى النحل يذكر به والعمل الصالح فى الخزائن » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فوجدنا هذه الجوارح السبع قد أخذ عليهن الميثاق وجعل لها كسب واكتساب . فكسبها الخير الذى يشير إليه القلب بما فيه من المعرفة . واكتسابها[1] الشر الذى يهيج من النفس بما فيها من الهوى فالمعرفة أمير القلب والهوى أمير الشهوات إذا كان صاحبها مخذولا . ثم هذه الجوارح بين القلب والنفس . فى القلب حياة الروح وفى النفس حياتها . والروح يدعو إلى الطاعة والقلب يدعو إلى المعرفة والنفس تدعو إلى شهواتها والهوى يدعو النفس إلى المعاصى . فقد أخذ على كل جارحة ميثاقها على العهد الذى عهد إليها من أن لا تجاوز حدها .

فاليد للبطش والأخذ والعطاء ، والرجل لقطع المسافات ، والعين لإدراك الأشياء بصرا ، والسمع لإدراك الأشياء حسا وصوتا ، والنطق لوعاء الرزق ، والفرج لقضاء الشهوة الغالبة على الشهوات المحتاجة إلى سكن . وقد قال فى تنزيله : « ومن آياته

(١) فى الأصل « اكتسابه »

أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها[1] » فالفرج لتسكين القلب واللسان للمنطق بإنجاز ما فى الضمير .

فبين عمل كل جارحة وكسبها واكتسابها . وقال فى تنزيله : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت[2] » فبان فضل اللسان على سائر الجوارح . إذ صار اللسان ترجمان الأمير . فإن كان القلب من القلوب التى صارت خزانة من خزائن الله بما فيها من المعرفة والتوحيد فترجمان ذلك القلب بارز الفضل على سائر الجوارح . وإن كان من القلوب التى هى مزابل الشيطان بما فيها من الجحود والشرك والكفران فترجمان ذلك القلب بارز الخسران على سائر الجوارح . .

حدثنا الجارود بن معاذ . حدثنا الفضل بن موسى الشيبانى عن الفرج بن فضالة عن النعمان بن عامر عن أبى أمامة قال : ما من بضاعة أحب إلى الله من اللسان . لأنه به يوحد . وما من بضاعة أبغض إلى الله من اللسان لأنه به يشرك » .

فكل جارحة من هذه الجوارح السبع تأخذ على كسب الخير أجرا من ربها يوم يوفون أجرهم . وكل جارحة يوضع عملها فى الخزائن إلى يوم الجزاء إلا اللسان . واللسان عمله أيضاً كعمل سائر الجوارح فى شأن المنطق . وإنما بان فضله بأن جعل ترجمان المعرفة ، والمعرفة ذات كنوز فجعل إبراز تلك الكنوز إلى اللسان دون سائر الجوارح ، فعمل اللسان فيما سوى ذلك كعمل سائر الجوارح فى الخير والشر وفضل لأن ترجمة إبراز الكنوز إليه من الإعتراف بالتوحيد ، فباعترافه بالتوحيد يحرم الدم والعرض والمال فوقفوا كلهم فى المأمن والحصن الحصين باعترافه بما فى الضمير الذى أضمره القلب . ثم جعل ترجمة ما فى القلب من كنوز المعرفة إلى اللسان مما تبرز الجوارح من عمل خير يرفع إلى الله فيوضع فى الخزائن

(١) الآية ٢١ من سورة الروم

(٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة

وما يبرز اللسان من كنوز المعرفة يرفع إلى الله وله دوى حول العرش يذكر صاحبه ويعظمه[1] .

قال له قائل : وما كنوز المعرفة ؟ قال إن المعرفة ذات شعب وهى مشحونة : فالأسماء حشوها وبها يمتلىء[2] ويشرق الصدر وبها تستقر النفس عن الترجح والتلكى فإن النفس كسفينة مشحونة بالشهوات قد أحاط بها خوف القلوب ألا تنال ماتريد فبنوال الشهوات تصير لاهية عن الله .

وبفوتها تصير ساخطة على الله ، فمن اللهو يتولد الأشر والبطر والاستبداد والتعظم والتكبر . ومن السخط يتولد اليأس والتملك والاقتدار والتجبر .

فإذا أشر وبطر واستبد وتعظم مقته الرب . وإذا يئس واقتدر وتجبر وتملك صغره وحقره واستهان به وأملى له فهو يجرى فى كيده المكين ومكنه العميق فى أيام دولته حتى إذا جاء أمر الله وحان مقدمه وبعثه دعوته أغفل ما كان . وقدم عليه محقوقا منسلخا من جميع خير الرب وعطفه ورحمته ، فيتمس وينفطر ويرمى أفلاذ نعمه كلها ، فهذا عمل النفس وهذه ثمرة عملها .

فإذا من الله على عبده بالمعرفة جاءت محشوة مشحونة حشوها من الأسماء وشحنها نبع الأسماء ، فأثقلت القلب فبقيت النفس تحت أثقال المعرفة كمن وضع على ظهره جبل هل يقدر أن يتحرك ؟ لأن ميل النفس فى الخفة والطيش كريشة تهب بها الرياح ليس لها قرار من الطيران كلما خلص إليها هبوب الهواء ثارت الشهوات فصارت فى صدره كالفراش المبثوث . فإذا وقعت عليها أثقال المعرفة كانت بمنزلة ريشة وضعت عليها صخرة فاستقرت .

(١) فى الأصل « يعطفه » .

(٢) لعل هنا تقديما وتأخيراً فى الكلام والأصل « وبها يمتلىء الصدر ويشرق » .

فإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه صفة الإيمان بالجبل : لثقل المعرفة فقال فى غير حديث « ذروا الإيمان فأوفر العباد حظا من كنوز المعرفة أوفر عقلا وبالعقل يطالع العبد كنوز المعرفة وكلما ازداد العقل انتقص الهواء فيورثه ذلك الخشية والحياء والتذلل والتواضع والثبات من مقاوم الصبر . ويورثه ذلك العلم الإرتحال إلى الله — ارتحال مشتاق قد برم بالحياة وقد صار وليا من أولياء الله . قال الله تبارك اسمه « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين[1] » فأعلم العباد أن أولياء الله فيتمنون الموت ولايبالون بجزع مرارته لحب اللقاء والشوق إلى الوصول إليه .

ثم أعلم العباد أن من عاجل سؤال سلامى منحته من عندى ، ومع السلام روح وريحان وجنة نعيم . فروح السلام وبرده يطفىء مرارة الموت . وريحان وهو ياسمين الجنة يدفع به مرارة الموت وينكر رائحته . وجنة نعيم يغط الروح فى ماء جنة النعيم حتى يعود طريا وتذهب عنه سخونة النزع . أو قطع السفر تلك المسافة والترقى فيها فى ساعة واحدة إلى العرش .

هذا عاجل ثواب المتمنى للموت شوقا إلى الله . والذى رفع باله حتى تجرع مرارته ولذلك قال أبو الدرداء « أحب الموت اشتياقا إلى الله » .

وهذه المعرفة إذا طالعها العقل صار عالما بالله ويورثه ذلك الخشية إذا نظر إلى ملك جبروته : قال الله تبارك اسمه « إنما يخشى الله من عباده العلماء[2] » ويستحى إذا نظر إلى كرمه ، ويتذلل إذا نظر إلى جلاله ، ويتواضع إذا نظر إلى عظمته ، ويثبت فى مقام الصبر إذا نظر إلى هيبته ويرتحل إليه إذا نظر إلى بهائه وجماله ويبث القلب خزانة الله محشوة بهذه الأنوار مشحونة بالمنبع والتوحيد . كالعماد وسط البيت وهذه

(١) الآية ٦ من سورة الجمعة

(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر .

الأشياء قد أحطن به . ولـكل شيء من هذا إشماع إلى الصدر من بابه فقد امتلأ الصدر من هذه الأنوار .

فهذا عبد إذا بلوته وجدت فيه خشية وفيه تذلل وفيه تواضع وفيه ثبات فى مقاوم الصبر خالٍ[1] عن الأشياء فقد انفرد بربه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حين قال لحارثة كيف أصبحت ؟ قال مؤمنا حقاً . قال وما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها — فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم : من سره أن ينظر إلى عبد نور الله الإيمان فى قلبه فلينظر إلى هذا » . فإنما نور توحيده الذى هو كالعماد وسط القلب بهذه الأنوار التى وصفنا .

ثم للنفس فى هذا الصدر باب يأتى بحريق كل شهوة ودخان كل نهمة وظلمة كل تجبر وكدورة كل استبداد ورائحة كل جهل حتى يلبس ويغطى هذا الشماع ويصير الصدر مشحوناً بغيوم هذه الأشياء : وعينا الفؤاد فى تلك الغيوم وامتنعت الأنوار التى فى القلب من الإشراق وانقطع الشماع . ثم تأدى مافى الصدر من الدخان ونتنه وحريقه إلى القلب فلم تزل تلك الأنوار تنخس وترجع القهقرى من حيث أشرقت بما يأتى النفس من مساخط الرب والتجبر فى دنياه وسوء الظن وتجبير الأحوال والاستخفاف بنعمه ،والإستهانة بأموره ، والتملك فى التدبر بنفسه والتشبه بالأصرار مقتدراً حتى تغيب الأنوار ويتبقى العماد وسط البيت فهو موحد القلب موحد اللسان عمل عمل الكفار لا شكر ولا صبر ولا انقياد ولا تذلل ولا علم ولا معرفة بأمور الله ولا ذكر المعاد، ولا مهابة الموقف والسؤال، فأعطى العبد خمس كلمات هى ترجمة هذا الكنز الذى حول التوحيد وهو « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله » حتى ينطق به اللسان فيكون استماله

(١) فى الأصل خالى

بلسانه إثارة لتلك الأنوار فإن تلك الأنوار إنما غابت لما جاءت به النفس بمنزلة جمرة غابت فى رماد فإذا أثرتها تلظت فاحتمى البيت فأضاء . فهذه الكلمات إذا استعملها بالمنطق فقد أثارها فتوقدت بالإثارة .

فالناس فى هذه المقالة بهذه الكلمات على ثلاثة أصناف :

١ — فصنف منهم ليس لهم من المقالة إلا الإيمان به وإبراز الحروف بالصوت فهم أجراء كسائر الجوارح يأخذون الأجر بذلك التعب الذى تعب اللسان وليس له مرتبة الفضل الذى فضل به على سائر الجوارح .

٢ — وصنف آخر لهم من هذا المقال علم منير تستنير بذلك العلم قلوبهم فهم الذين قد أثاروا الجمرة حتى استنارت وتوقدت . وبنور العلم توقدت الجمرة وتلهبت فهم الذين بذروا بساتين الجنة وغرسوا أشجارها .

٣ — وصنف ثالث لهم من هذا المقال علم ولقلوبهم إشراق يطلع ذلك الإشراق بقلوبهم على معدن العلم الذى منه جرى هذا العلم حتى ينطقوا بها عن روية وبصيرة، فهم الذين ازدهرت بساتين الجنان لمقالتهم وفاحت رياح رياحينها وورودها بألوان الطيب . ومن هذا الصنف خاصة الله تعالى ، فهم أعلام هذا الصنف وسادتهم أشرقت قلوبهم فدام الإشراق حتى مدت أعينهم إلى نبع العلم الذى تمعدن ها هنا فرق بقلوبهم من المعدن إلى النبع الذى منه بدا — أولئك خاصة الله — أولئك الذين إذا نطقوا بهذه الكلمات إزدهرت بساتين الله التى هى مرعى أولياء الله بين يديه فى ملك الملك قبالة وجهه . بهم يدفع الله عن أهل الأرض — وبهم يسقون — وبهم يفتح باب الرحمة على الموحدين . أولئك أهل فرج الله وموضع نظره من الله .

ولذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحقق هذا .

حدثنا بذلك مهدى بن عامر حدثنا الحسين بن حازم عن أبى حاجب عن زيد ابن وهب عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ونظر

إلى جبل أحد فقال : « إن رجلا فى أمتى : الحرف الواحد من تسبيحه أثقل من هذا الجبل » .

وحدثنا قتيبة بن سعيد عن رفاعة بن يحيى بن عبد الله بن رفاعة ابن رافع عن عم أبيه معاذ بن رفاعة بن رافع عن أبيه قال : « صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فعطست فقلت الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى » فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف . فقال : من المتكلم فى الصلاة ؟ فلم يكلمه أحد . ثم قالها ثانية فقال رفاعة : أنا يا رسول الله، فقال كيف قلت ؟ قال قلت : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى . فقال النبي عليه السلام : والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضع وثلاثون ملكا أيهم يصعد بها » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فإنما ابتدرها الملائكة لعظم ما رأوا فى تلك الكلمات من الأنوار من قائلها .

حدثنا عبيد الله بن أبى زياد القطوانى حدثنا سيار حدثنا عبد الواحد بن زياد عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقيت إبراهيم فى السماء السابعة ليلة أسرى بى فقال لى يا محمد — أقرىء أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة قيعان وأن ماءها عذب وتربتها طيبة وأن غراسها قول « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

حدثنا الفضل بن محمد حدثنا عمران بن بكار الحمصى عن بكر بن خنيس حدثنا أبو عبد الرحمن بن أنس عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما : « أيها الناس أكثروا من ذكر الله على كل حال فإنه ليس من عمل أحب إلى الله ولا أنجى للعبد من كل سنة فى الدنيا والآخرة من ذكر الله قال قائل يا رسول الله : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال لولا ذكر الله لم يأمر الله

بالجهاد فى سبيله . ولو أن الناس اجتمعوا على ما أمروا به من ذكر الله لما كتب الجهاد عليهم . وإن ذكر الله لا يمنعكم من الجهاد فى سبيله ولكنه عون لكم : فقولوا لا إله إلا الله وقولوا الله أكبر والحمد لله وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن خمس لا يعدلهن شىء عليهن فطر الله ملائكته ومن أجلهن رفع الله سماواته ودحى[1] أرضه وجبل إنسه وجنه وفرض عليهم فرائضه ولا يقبل الله ذكره إلا ممن طهر قلبه . فأكرموا الله أن يرى منكم ما نهاكم عنه قد أثر ذلك عندكم . فقالوا يارسول الله فإن ذكر الله لايكفينا عن الجهاد فى سبيله قال ولا الجهاد يكفى عن ذكر الله . وإنما الجهاد شعبة من شعب ذكر الله فطوبى لمن أكثر فى الجهاد من ذكر الله . كل كلمة « الله » بسبعين ألف حسنة وكل حسنة بعشر أمثالها وعند الله من المزيد ما لايحصى ، قالوا يارسول الله . والنفقة على حسب ذلك قال نعم . قالوا يا رسول الله فإن ذكر الله أهون العمل قال إن الله الكريم إنما افترض على العباد أهون العمل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، فلما لم يقبلوا رحمة الله أمر الله بجهادهم فاشتد البلاء على المؤمنين وجعل الله لهم العاقبة وجعل النقمة على الكافرين » .

قال عبد الرحمن : فقلت لمعاذ رضى الله عنه : إن الله إنما ذكر النفقة فى سبيله فى القرآن سبعمائة . قال قل فهمك : إنما ذلك إذا أنفقوها وهم مقيمون فى أهاليهم غير غزاة .

حدثنا محمد بن حسين حدثنا عروة بن إبراهيم عن أبى الهيثم السجزى عن أبى عبد الرحمن عن عبادة عن ابن عمر عن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثله إلا أنه قال بدل قوله « لا حول ولا قوة إلا بالله » قولوا تبارك الله .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فأنبأك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث

---

(١) أى بسط أرضه

أن عظم ثمرة هذه الكلمات وسلطانها لمن طهر قلبه . وطهارة القلب لهذا الصنف الثالث .

والقبول على وجهين : ١ — أحدهما أن يقبل من العبد ذكره وسائر أعماله فى الوقت الذى يعمله . فإذا عرض عليه قبله لأنه خرج من قلب طاهر .

٢ — والقبول الآخر يوم الجزاء . فهذا لأهل التخليط خرج الذكر منهم والأعمال من جوارحهم من صدر دنس وقلب كدر فأخر عرضه على الله ووضع فى الخزائن إلى يوم الجزاء يحصل مافى الصدر إذا بليت السرائر فجعل الله هذه الكلمات الخمس غياثاً للموحدين ومدداً للمعرفة . كما أورد العدو عليهم ما يطمع من تكدير توحيدهم وتلبيسه عليهم صفوهم — كشطوا عليه تلبيسه بهذه الكلمات حتى يبقى توحيدهم صافياً . وإن هذا العدو قد أعطى ما يضل به الآدميين[1] ويغويهم وقال فى تنزيله فيما يحكى عن قول العدو « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين[2] » فإنما صاروا مخلصين بهذه الكلمات الخمس فأوفرهم حظاً من العقل بمقالة هذه الكلمات أبرؤهم من غوايته وأزههم توحيداً وأصفاهم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإيمان حلو نزه فنزهوه » .

حدثنا بذلك عياد عن يعقوب الأسدى حدثنى السرى بن عبد الله بن زياد ابن المنذر عن أبى جعفر محمد بن على عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا عمر بن أبى عمر عن عقبة بن الرحض عن إسماعيل بن عياش عن أبى بكر الهذلى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، قلت يارسول الله أوصنى بوصية قصيرة قال منها : « قال : لا تغضب فإن الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل

---

(١) فى الأصل « الآدمى » بالأفراد .
(٢) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ سورة الحجر .

فقد أعلمك أن مرارة الغضب تذهب بحلاوة الإيمان فتفسده عليك .

وقال فى تنزيله فيما يحكى عن العدو من قوله « لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك »[1] ، فلولا أنه أعطى فى صوته شيئاً تسبى القلوب حلاوته مااستفز أحداً بصوته ولا أجابه . فإنما صوت للمشركين من الأوثان حتى أجابوه لما خلص إليهم من حلاوة الصوت وكذلك كل معزفة ومزمار فيه حلاوة ذلك الصوت فإنما أجابوه إلى ذلك لما خلصت إلى نفوسهم من تلك الحلاوة التى ركبت فى الآدميين. وكان الأصل واحدا فاختلطت الحلاوات وهاجت الأفراح . ثم قال فى آخر الآية « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا »[2] فإنما يتوكل الله لمن توكل عليه واتخذه وكيلا. فإنما حسم باب سلطان العدو ممن كان تعلقه بالله وتبتل إليه تبتيلا .

وأول أسماء الرب هو « الله » ومبتدأ أسمائه هو الله . فإذا صارت القلوب إلى الله وانقطعت عن الخلق ولهت به ولهت عن الخلق فصارت الأسماء كلها له مستنيرة لأن الأسماء خرجت من اسمه (٣) « الله » ألا ترى إلى قوله « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » فنسب الأسماء الحسنى إلى اسم الله . ثم قال : « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون[4] »

والملحد على صنفين :

١ — الملحد إلحاداً إلى الشرك المحض الذى انحلت العقدة به .

٢ — وملحد إلحادا إلى شرك الأسباب الذى يوهى عرى التوحيد ويرضى أطفابه

---

(١) الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ من سورة الإسراء
(٢) الآية ٦٥ من سورة الإسراء
(٣) هكذا فى الأصل« ولعلها من اسم الله » .
(٤) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف

فأمر الله أن ينقطع إليه بذكر هذا الإسم حيث قال: «واذكر اسم ربك»[١] فاسم الرب هو الله ثم قال: «وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا»[٢] فهذا لمن عقل تحرير النفس وعتق من رقها فإذا عقل العبد الله وَلِهَ إليه . وإذا عقل ربه استغنى به عن جميع الأشياء فتجده حينئذ غنيا وَلِهاً» فالعدو قد أخذ من ربه أسلحته التى يحارب بها بنى آدم ويفتنهم وهى ([٣])، الزينة والفرح والحلاوة والنفخة بالكبر والغضب والهمز ([٤]) والنفثة ([٥]) فالنفثة فى الشهوة والمنى . والفرح فى الزينة. فإذا أوردها على الصدر فتأدى ذلك من الصدر إلى الخزانة غابت الأنوار بمنزلة الشمس التى تغيب مرة فى السحائب ومرة فى الكسوف . فإذا جاء الكبر انكسفت الأنوار . وإذا جاءت الزينة والأفراح غابت فى السحائب المظلمة المتراكمة فعندها يحدث سوء الظن بالله والجهل بالله والتهمة لله والتملك والإقتدار على تدبير الله والسخط لحكم الله والإعراض عن مواعظ الله والتهاون بمجاوزة حدود الله، والاستخفاف بوعد الله ووعيده .

فسوء الظن بالله يؤدى بالعبد إلى التعلق بالمخلوقين واتخاذهم أولياء من دون الله حتى يغضب لغضب المخلوق ويرضى لرضائه ويكون عبداً من عبيده . إن صرفه عن طاعته انصرف إتباعاً لهواه . وإن حمله على معصية ارتكبها إتباعاً لهواه وابتغاء لمرضاته .

ومن الجهل بالله أن يعجب بطاعته ويعمل برأى رآه من نفسه ويتعظم بذلك على خلقه ويزرى على أهل المعاصى ويحقرهم ولا يرحمهم ويعيرهم ويمنّ على الله بعمله ويتكبر فى نفسه .

---

(١) الآية ٨ من سورة المزمل
(٢) الآية ٨ ، ٩ من سورة المزمل
(٢) الأصل وهو
(٤) الهمز هو الغمز
(٥) النفثة هى ماينفخه المصدور من فيه .

ومن التهمة لله : أن يتخير على الله الأحوال ويزيف تدبيره ويختار لنفسه ويتمنى لها، فهو مشغول القلب أبداً فيما يكون وما يكون . وفى الاحتيال لما يكون وما لا يكون طمعاً للوصول إلى نهمته ومراده فهو معذب الروح مكدور القلب مكبود النفس .

ومن التملك والاقتدار على تدبير الله أن يكابد الأمور ويتحير فيها ويدفعها بما أعطى من القوة . ثم لا يلتفت إلى رضاء الله ولا إلى سخطه .

ومن التسخط لحكم الله أن يحسد الناس على فضل الله إياهم ولا يتهيأ بما أعطى . فعينه مادة([١]) إلى ما أعطى غيره ومعرضة عما أعطى . لاهٍ[٢] عن شكره . باغٍ([٣]) لإفساد تدبير الله فى عباده . مضاد لقضاء الله .

ومن الإعراض عن مواعظ الله : خراب القلب وإهمال النفس .

ومن التهاون بمجاوزة الحدود : التردى فى النار .

ومن الاستخفاف بوعد الله ووعيده : حرمان الوعد والمصير إلى الوعيد — وانتكاس القلب فى الظلمات واستيلاء النفس على صاحبها .

فهذه الأشياء إذا حلت بالعبد تخلصت إلى قلبه ذابت هذه الكنوز فى تلك الغيبوبة ، لأنها وقعت فى سجن مظلم فتغيب أولا ثم تذوب حتى تذهب ويبقى العمود — عمود التوحيد — فى وسط القلب . فلولا ذلك العمود لانهدم البيت فإذا انهدم سقط بالأرض .

وقلب المؤمن منتصب منبسط بين يدى الله . وقلب الكافر ساقط منكوس . فهذا القلب الذى وصفنا إذا ذابت الكنوز منه لحرارة ما أتت به النفس

---

(١) هكذا فى الأصل ولعلها « ممدودة »
(٢) « لكن فى الأصل لاهى »
(٣) لكن فى الأصل « باغى »

بقى العمود والقلب قائم بعد . ولكنه سقيم ودام العبد على هذا فهو على خطر عظيم لا يؤمن أن يذوب هذا العمود أيضاً حتى ينكسر فيتساقط القلب على وجهه منكوساً فيصير من الكافرين ، لأن الكفور لنعم الله إذا استمر فى كفرانه : أداه ذلك إلى الكفر الأعظم ، لأن الكفران مشتق من الكفر . والكفران من نعم الدين والدنيا . والكفر من رأس النعم وهو التوحيد . فإذا انهمك العبد فى الكفران فمنتهاه إلى الكفر : كالذى ينحدر من رأس الجبل فلا يزال فى التردى يتعلق بشىء ثم يتردى حتى يصير إلى سفح الجبل ثم يضطرب فإذا هو بالأرض ملقى قد زايل الجبل وتخلى عنه .

فهذه الكلمات الخمس غياث ومدد لحزب الله فإذا أورد العدو شيئاً مما ذكرنا وتأدى ذلك الوارد على الصدر إلى القلب فكأنه اختلس من القلب شيئاً من الكنوز لأنه قد أتى بما طمسه وغيبه عن العبد وأذهب عن نفسه وقوته فتكلم العبد بهذه الكلمات ليملأ المكان الذى خلا بالاختلاس فيضىء ذلك المكان ويستنير ويشرق ممن علم علم التوحيد والإستنارة لمن علمه علم الإثارة بوثارة العقل والإشراق الملاحظين إلى المعادن والشعاع للخاصة — كل على قدره يطفى ويرد ما أورده العدو ويبطله فيعود كما كان .

١ — فبالإضاءة : يكتب للعبد أجر كسائر الجوارح وتطيب نفسه وتتسع .

٢ — وبالإستنارة : يكتب له أجر على الضعف بتسعمائة ويرد ما جاء به العدو ويطهر البيت .

٣ — وبالإشراق : يكتب له الأجر على الأضعاف الكثيرة الذى ذكره الله فى تنزيله الذى لا يحاط بعلمه من قوله « فيضاعفه له أضعافا كثيرة [١] » والكثير من الله لا يحصى .

---

(١) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة .

٤ — وبالشعاع : يكتب له مقالته وتملأ الخزائن ويمتلىء منه الفحص بين يدى الله ولا تدركه الحفظة .

وذلك مثل ما روى . حدثنا بذلك أبى حدثنا بذلك ثابت بن محمد الزاهد حدثنا محمد بن إبان عن هشام بن الغازى عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان قال قال داود صلى الله عليه وسلم « يارب كيف لى أن أودى شكر ما أنعمت على ؟ قال قل يا داود : الحمد لله كما ينبغى لكرم وجه ربى وعز جلاله ، زاد غيره « ونور كبريائه » قال فقالها فأوحى الله إليه ياداود لقد أتعبت الكتاب :

حدثنا الفتح مولى غالب بن هلال عن أبى غالب حدثنا غالب بن هلال عن محمد بن الفضل بن عطية عن عبد الله بن لاحق عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال : « قال داود النبى — صلى الله عليه وسلم — فى دعائه : الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله . قال فأوحى الله إليه أن ياداود لقد أتعبت الملائكة بكلامك : قالت الملائكة : يارب كيف نكتبها ؟ : قال : اكتبوها كما قال عبدى » .

وروى عن عمرو بن عاصم عن همام عن قتادة عن أنس قال : « صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل منبهر [١] فدخل فى الصلاة فقال : الحمد لله حمداً كثيراً طيبا مباركا فيه — فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيكم القائل كذا وكذا — فقام رجل فقال أنا يارسول الله فقال رأيت اثنى عشر ملكا ابتدرها أيهم يصعد بها إلى الله فصعدوا بها . فقال الله تبارك اسمه « اكتبوها كما قال عبدى » .

وحدثنا قيس بن نصر الأسدى فى حديث له ذكره قال : حج رجل فقال فى المسجد الحرام « ياهو يامن لاهو إلا هو أغفرلى » . ثم مضى عام [٢] . فحج

---

(١) منقطع النفس من الإعياء وهو التكليف فوق الطاقة .
(٢) فى الأصل « عاما »

عاما قابل فصار إلى ذلك المكان فى المسجد فقال هذه الكلمة فنودى ياعبد الله إن الحفظة كانت تكتب مقالتك من يوم قلتها إلى هذا العام إلى هذه الساعة » .

فأهل الإنارة والشعاع يملأون زوايا البيت — أعنى القلب — بهذه الكلمات — ماوهى وخلا من الكنوز ولذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« جددوا إيمانكم : قالوا بماذا يارسول الله ؟ قال بلا إله إلا الله »

قال أبو عبد الله رحمه الله : حدثنا الحسين بن على العجلى حدثنا عامر بن محمد القفقزى حدثنا مبارك بن حسان عن عيسى بن المغيرة الحرامى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كفارة أحداثنا فقال لا إلا إلا الله .

قال أبو عبد الله رحمه الله : فهذه الكلمات الخمس غياث ومدد للعبيد من الله.

١ — فسبحان الله ينزهه عما خلق.

٢ — وبالحمد يؤدى شكر ما خلق .

٣ — وبالتهليل يعلق قلبه بألوهيته تنزيها وطهارة من علائق النفس .

٤ — وبالتكبير يذل له ذلة التراب الذى منه بدا .

٥ — وبتبارك الله ينفى الشرك .

٦ — وبلا حول يتبرأ من محاربة حق الله .

فجمل هذا كله فى فعل سمى الفعل بالصلاة للتصلية بين يدى ربه كاصطلائك بالنار . فإذا وقفت إليها خلص إليك حرها فدفئت بها . فكذلك الصلاة من دخلها فقد دخل دار الله فوصل إليه من قربه ما يحيى به ويطهر به . وبالعبد حاجة إلى الطهارة والحياة. فبالحياة يقوى على إخلاص العبودة وبالطهارة يخلص إلى صفاء العمل .

فلا إله إلا الله إثبات المعرفة والمعرفة كنوز وبالكنوز يمتلىء القلب ويقوى العمود . فإذا ذهبت الكنوز وهى العمود . فإذا نطق القائل بلا إله إلا الله استقار

الصدر وامتلأ من الإشراق والشعاع، فعندها يجد صاحبها قشعريرة وهو الذى وصف الله تبارك اسمه فى التنزيل فقال « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » (١) .

فروى عن عائشة رضى الله عنها وأم الدرداء أن الوجل فى القلب من قشعريرة الجلد . حتى قال قائلهم : إنى لأعلم متى يستجيب لى : قيل وكيف ذاك ؟ قال إذا وجل القلب وفاضت عيناى واقشعر جلدى فإنى أعلم أنه قد استجيب لى .

حدثنا بذلك عبد الله بن أبى زياد حدثنا سيار عن جعفر بن سليمان عن ثابت البنانى عن أبى عثمان النهدى .

قال أبو عبد الله رحمه الله : «إنما استدل بهذه الأحوال على استجابة الدعاء لأن الله تبارك اسمه قال : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات (٢) » وشهد فى آية أخرى بأنه مؤمن من قوله « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم (٣) » فشهد لهم بالإيمان .

وروى عن وهب بن منبه أنه قال : وجدت فرأيت (بياض فى الأصل (٤)) أنه قال هل تدرون من أحب عبادى إلىّ : الذين (٥) إذا قال لا إله إلا الله اقشعر جلده فذلك الذى أتردد فى وفاته يكره الموت وأنا أكره مساءته .

فلم يبق للنفس ولا للعدو متحرك ، فاطمأنت النفس مع القلب فاستقامت الأركان سترا . فبلا إله إلا الله يثبت العمود. وبسبحان الله تحتشى الكلمة الأولى،

(١) الآية ٢ من سورة الأنفال

(٢) الآية ٢٦ من سورة الشورى

(٣) الآية ٢٠ من سورة الأنفال

(٤) وجد مكان هذه بياض فى الأصل

(٥) هكذا فى الأصل « ولعلها « الذى »

وبالحمد لله يكثر الحشو — وبالتكبير يستطيل ويعلو — وبتبارك يعلق فى المعلق .

فإذا ذكرهن فى غير الصلاة فله ما وصفنا — وإذا ذكرهن فى الصلاة تضاعف درجاته حتى لا يحصى عدد تضعيفها [1] . فكذلك الصلاة بمنزلة من صلى فى الحرم فهو مضاعف على ماسواه من البقاع بمائة ألف درجة فإذا صلى فى البيت لم يحص عدد تضعيفه فكذلك الصلاة هى دار الإقبال على المقبلين عليه .

وكذلك جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزال الله مقبلا على العبد ما دام العبد فى الصلاة » وقال فى حديث آخر « إن الله ينصب وجهه الكريم المصلى حتى يفرغ من صلاته » .

فالصادقون إقبالهم فى صلاتهم على أفعال الصلاة وتلاوتهم وتسابيحهم والصديقون إقبالهم على معانى الأفعال ومعانى التلاوة والتسابيح .

وخاصة الله من الصدّيقين : إقبالهم على خالقهم بالمعانى ثم إقبال الله عليهم من حيث يقبل العبد عليه .

فإذا انتصب قائماً فإقباله على قيوميته .

فإذا كبر فإقباله على كبريائه . . فإذا نزهه وأثنى عليه فإقباله على سبحات وجهه الكريم . فإذا تعوّذ فإقباله على ركنه الشديد — فإذا تلا فإقباله على جوده ولطفه، فإذا ركع فإقباله على عظمته ، فإذا سجد فإقباله على التعلق به فإذا جثا على ركبتيه للتشهد والرغبة فإقباله على صمديته .

فبإقباله على قيوميته : يثبت قدمه فى مقامه بين يديه . . وبإقباله على كبريائه يوجب له العفو ويستره برداء الكبرياء فإذا دخل فى ذلك الستر نال محل الاستجابة فى الدعاء — وباقباله على سبحات وجهه الكريم يقطع عنه علائق النفس — وبإقباله على ركنه يكتنفه — وبإقباله على جوده ينال سخاوة النفس .

---

(١) فى الأصل « تضعيفه »

وبإقباله على عظمته يحيا قلبه بعلمه بالله فتعظم آماله . وبتعلقه بالقدم يؤمنه من عقابه وسلطانه — وبإقباله على صمديته يحتشى قلبه من الحياة والرحمة ويستغنى عن الأشياء .

فهذه ثمرة الإقبال من خاصة الله على الله تعالى فى صلاتهم . فهذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا عبد الوهاب بن عبد الحكيم الوراق حدثنا هاشم بن القاسم عن بكر ابن حنيس عن ليث بن أبى سليم عن زيد بن أرطاة عن أبى أمامة ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أذن الله لعبد فى شىء من ركعتين يصليهما وإن البر ليذر فوق رأسه ما دام فى صلاته وما تقرب العبد إلىّ بشىء أفضل مما خرج منه — يعنى القرآن » .

قال أبو عبد الله رحمه الله : — فالبر من هنا : الإقبال من الله على العبد لإقباله عليه من هذه الأشياء التى وصفنا .

حدثنا عمر بن أبى عمر عن أحمد بن صالح المقرى عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :— « استكثروا من الباقيات الصالحات . قالوا يا رسول الله ماذا ؟

قال الملة . قيل ما الملة ؟ قال التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير » .

حدثنا الفضل بن محمد حدثنا موسى بن عامر الدمشقى حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى أبو تميم الكلابى عن إبان عن الحسن قال : بنى الإسلام على عشرة أركان:

١ — الإخلاص لله وهو الفطرة .

٢ — والصلاة وهى الملة .

٣ — والزكاة وهى الطهر .

٤ — والصيام وهو الجُنّة .

٥ — والحج ، وهو الشريعة .

٦ — والجهاد ، وهو العزة .

٧ — والأمر بالمعروف ، وهو الحجة.

٨ — والنهى عن المنكر ، وهو الواقية .

٩ — والطاعة ، وهى العصمة .

١٠ — والجماعة ، وهى الألفة .

انتهى شرح الصلاة من تصنيف الإمام الحكيم أبى عبد الله محمد بن على الترمذى رحمه الله — واتفق الفراغ منه على يدى على بن سليمان بن أحمد بن سليمان المرادى الأندلسى . نفعه الله به وجعله من العالمين بما فيه والعاملين بما تضمنه بفضله ورحمته آمين والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله أجمعين ورحم الله من نظر فيه ودعا لكاتبه ولوالديه بالمغفرة والرضوان وعمم ذلك فى حق كافة المسلمين وختم بالصلاة على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ».

التصويب

الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	رقم السطر
معدتها	معدنها	٤	٧
عباة	عبادة	٧	٦
لم يحييها	لم يحيها	١٢	٦
الرعى	المرعى	١٣	٢
دتبارك	وتبارك	١٣	١١
استوجبو	استوجبوا	٢٠	٢٠
يثيت	يثبت	٢٢	٧
تحبره	تجبره	٢٣	٦
افترض	افترضها	٢٨	٨
معرصا	معرضا	٣١	٩
وصوئه	وضوئه	٣٤	١٧
جذبته	جدبته	٣٦	٢
عرقت	عرفت	٣٧	١٠
بك	يك	٣٩	٦
الجارور	الجارود	٣٩	١٠
ن الله	عن الله	٤٠	٨
الذى	التى	٤٠	١٠
رحمه	رحمه الله	٤٠	١١
فأنى	فأنى	٥٧	٧
محبته	محبة	٥٨	٢
تسمع	نسمع	٥٩	٢١

الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	رقم السطر
بور	بنور	٦٤	١١
يمش	يمشى	٦٨	١٠
أفبلوا	أقبلوا	٧٤	١٤
لا أشق	لا تشق	٨٩	١٦
فششت	غششت	٩٤	٢
جاهل	جاعل	٩٤	٥
بمخاطبته	بمخاطبتك	١٠٣	١٦
مصالحوهم	مصالحهم	١٠٨	١٨
فا يبق	فاذا يبق	١١٨	٢٠
عيسى ابن مريم	عيسى بن مريم	١١٩	١٩
الحارث ابن عباس	الحارث بن عباس	١٢١	١١
نافع ابن جبير	نافع بن جبير	١٢١	١٣
همام ابن يحي	همام بن يحي	١٢٦	١٣
الدلو	الذلو	١٢٨	٩
استحق اسحق	استحق	١٣٣	١١
فنيتهم	منيتهم	١٥٩	٧

هذه بعض الأخطاء، وليس من شك في وجود أخطاء أخرى قد تركناها اعتماداً على فطنة القارىء أو سهواً عنها فنرجو المعذرة .